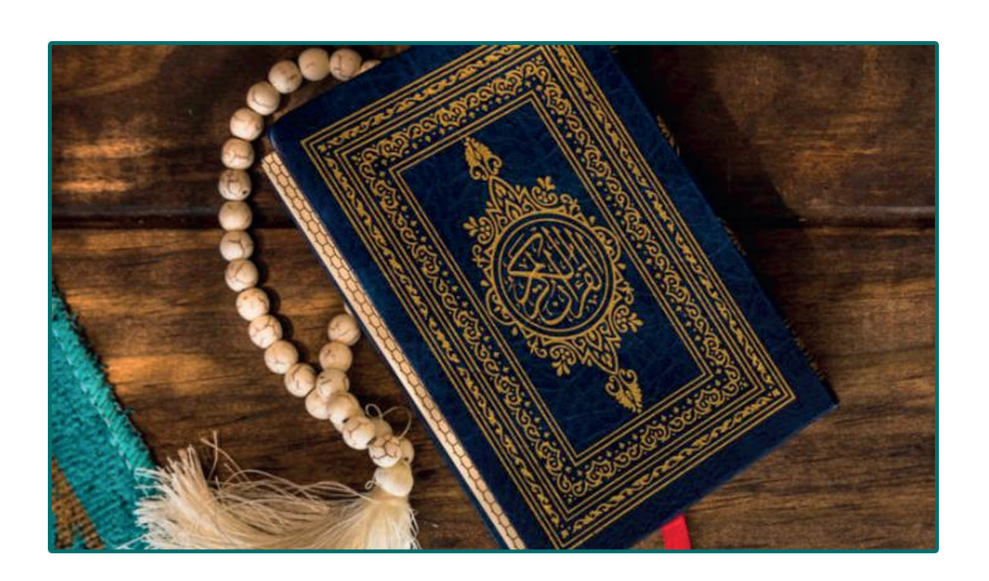
سلسلة دراسات 20

الأمثال في القرآن الكريم
وتأثيرها في النفس الإنسانية



د. حسن محمد أحمد محمد







كتاب: الأمثال في القرآن الكريم وتأثيرها في النفس الإنسانية

تأليف: د. حسن محمد أحمد محمد

الناشر: مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات (مفاد)

ردمـــك: 978-9920-576-03-1 : ISBN

الطبعة الأولى: 1443هـ / 2021م

التدقيق والإخراج الفني: www.islamanar.com

الأمثال في القرآن الكريم
وتأثيرها في النفس الإنسانية

د. حسن محمد أحمد محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ
وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ
الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ

سورة الحج: 73.




الإهداء

إلى روح أبي الشفوق العطوف، رحمه الله تعالى، في عليائه، أهدي ثمرة جهدي الذي لا يكافئ جزيل عطائه وحسن كفاحه، في حياته وحتى بعد مماته.

كل الهدايا قد رأيت صنوفها إلا الكلام ففيه ما لم يُسمَعِ
فجعلت إهدائي إليك مدائحاً مثل الرياض من الكلام المبدع

متوسلاً ومتضرعًا إلى الله العلي القدير أن ينزل عليه شآبيب رحمته الواسعة، وأن يسكنه فسيح جناته، وأن ينزله منازل الصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقا.




الشكر والتقدير

الحمد لله وشكرًا له والله أهل الحمد والشكر

الحمد والشكر لله، تعالى، قبل البدء وبعد المنتهى نحمد الله حمد الشاكرين ونشكره شكر الحامدين، الحمد لله الذي يقصر دون حمده حمد الحامدين، الحمد لله الذي حمد نفسه بنفسه حين علم قصورنا فقال:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) الفاتحة: 2.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) الأنعام. 1.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) الكهف: 1.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) سبأ: 1.

ولا نملك أن نحصي ثناءً على الله ولا شكرا، فالحياة والوجود جميعًا من فيض رحمته وعظيم آلائه، ولا نملك غير أن نرفع الأكف متضرعين ومتوسلين أن يتقبل منا ويمنحنا حسن جزائه، وتلهج الألسن بدعائه، آملين أن يتقبل من عبده الدعاء ويستجيب منه الرجاء.

الحمد لله حمداً زاكي الأثرِ مردّد الذكر بالآصال والبكرِ
والله أكبر تعظيماً لعزَّتِهِ سبحانه وتعالى منزل السورِ
ولا إله سواه جَلَّ عن مَثَلٍ وعن نظير وعن كفّ وعن وزرِ

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس: 10.

تقديم

اشتهر العرب في ثقافتها القديمة بكثرة ضرب الأمثال واستخدام الحكم المأثورة؛ لما لها من تأثير على السامع، ولما لها من وجازة قاصدة معبرة عن الموقف المطلوب بأدق عبارة وأوجزها وأبلغها، فصارت أمثالهم معبرة عن مواقف وحالات وحِكم، لذلك حفظتها العرب وتداولتها بشكل كبير. وبما أن القرآن الكريم خاطب أمة عربية فقد راعى في خطابه هذا الأمر، فجاء القرآن الكريم والسنة النبوية بأمثال كثيرة كان الغرض منها بيان وتقرير ألوهية الله ووحدانيته وكماله، وكان الغرض أيضا دعوة الناس إلى التخلق بأخلاق القرآن الكريم واتباع هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم فجاءت تلك الأمثال متنوعة مؤثرة في النفس البشرية.

وقد ضرب الله تعالى الكثير من الأمثال في آي القرآن العظيم معتمدا التشبيه بأرقى عبارة وأدقها لتقريب الصور الغيبية والبعيدة عن الحواس من جنة، ونار، وصراط، ونعيم، وعذاب، وغيرها، وتقريبها إلى الأذهان حتى تتمكن النفس الإنسانية من إدراكها وتصورها تصورا يقرب إلى الصورة الحقيقة. إضافة إلى أمثال أخرى عبرت عن حال الإنسان سواء المؤمن أو الكافر، الموفق من الله أو الذي خانه التوفيق الإلهي؛ ليتدبرها المؤمن ويفهمها ويقتدي بمعانيها وتوجيهاتها في حياته.

وقد انبرى الدكتور الفاضل حسن محمد أحمد محمد لإماطة اللثام عن أوجه التقاطعات بين المعاني التي أوردها المفسرون وبين المعاني النفسية لتلك الأمثال فجاء كتابه موسوما بعنوان: الأمثال في القرآن الكريم وتأثيرها في النفس البشرية، والله أسأل أن يجعل كتابه هذا إضافة نوعية لما كتبه متقدمونا في ذلك الباب.

صدر عمله هذا بمقدمة بين فيها إشكالية البحث والأهداف المتوخاة والمنهج المتبع مبينا أن عمله هذا إنما هو جمع لمعاني الأمثال الواردة في القرآن الكريم مصحوب بتعليقاته على هذه المعاني وتأثيرها في النفس البشرية، وطفق بعدها يتحدث في فصل تمهيدي عن سيكولوجية المعتقدات الدينية، وتأثيراتها النفسية ثم ما ضُربتْ به الأمثال من آي القرآن العظيم، وأخيرا تحدث عن الأسلوب القرآني وما تميز به من بلاغة وقوة حجة وتأثير. ثم شرع بعد ذلك في دراسة الأمثال الموجودة في القرآن الكريم محترما ترتيبها في المصحف الشريف،

فكان أول مثل في سورة البقرة وآخر مثل في سورة المدثر، وقد بلغت الدراسة تسعة وثلاثين موضعًا في القرآن الكريم ورد فيها ذكر للأمثال. وختم بحثه بخاتمة ذكر فيها ما توصل إليه من نتائج.

وقد عمل الدكتور حسن محمد أحمد محمد على تبيين العلاقة بين معاني الأمثال في التفاسير التي اعتمدها وبين المعاني النفسية، متدبرا أحيانا في هذه المعاني، ومصرحا بما أحسه واستشعرته نفسه من جمالها وبلاغتها وتأثيراتها، ولتحقيق مبتغاه من الكتاب، استعان بطائفة من المصادر والمراجع تجمع بين القديم والحديث؛ فجاء عمله بحمد الله تعالى رصينا يسر الناظرين.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب من الصدقات الجارية، ومن العلم النافع المنشئ للعمل الصالح الرافع، والحمد لله رب العالمين.

كتبه الدكتوررشيد عموري

مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات (مفاد)

صبيحة يوم الاثنين 02 ربيع الثاني 1443هـ/ 8 نونبر 2021م.

فكرة عن الكتاب

من مزايا القرآن الكثيرة، مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين المسلمين، وغير المسلمين، لأنها ثبتت من تلاوة الآيات ثبوت أرقام الحساب، ودلالات اللفظ اليسير، قبل الرجوع إلى تأييدها بالمناقشات والمذاهب التي قد تختلف فيها كثيرًا ..، وتلك المزية هي التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكاليف[1]؛ ولذلك نجد أن القرآن العظيم يدعونا، في الكثير من آياته، دعوة صريحة ومباشرة إلى إعمال العقل والتفكير والتدبر والتأمل والتذكر ...، يقول تعالى:

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآَنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) الزمر: 27.

والغرض من إعمال الفكر هو أن يستشعر المؤمن عظمة تلك والآيات القرآنية، ويستخلص من بين ثناياها العظة والعبر؛ وذلك جتى تضمئن النفوس وتتيقن، تمام اليقين، إلى أن القرآن العظيم هو كلام الله الذي تزين بحلل الجمال وبلغ أسما آيات الكمال، يقول تعالى:

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآَنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس: 37.

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآَنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) الإسراء: 88.

كذلك جاء في البحاري: (عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[2].

حفزتني تلكم الآيات الآنفة الذكر وما اشتملت عليه وتضمنته من دعوة، إلى توسيع مدارك الفهم وإعمال العقل عند تلاوة آي الذكر الحكيم، لقد اسهوتني تلك الآيات وأضرابها إلى تناول مواضع الأمثال في الآيات القرآنية التي ورد ذكرها في آي القرآن العظيم كنماذج

1/ عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية، ص: 5، دار الهلال، مصر
2/ صحيح البخاري ج4:ص1919.

وأمثلة، تهدف إلى تقريب المعاني وتوضيحها لكل قارئ يتلو آي القرآن العظيم ويتدبر كلماته، بقلبه وجنانه قبل لسانه، فما كان مني إلا أن عقدت العزم على أن خوض لجة هذا البحر الخضم، متسلحًا بعدد من كتب التفاسير، خطتها أقلام علماء أجلاء أفاضل، فاستعنت بها كثيرًا على استجلاء المعاني دون تدخل مني إلا بتوضيحات، وضعتها بعد الانتهاء من تقديم التفاسير التي استعنت بها في اخراج هذا السفر. ولم يكن لي من هدف من وراء هذه التوضيحات، التي أوردتها، إلا التعبير عن مكنونات نفسي والبوح بما خالج مشاعري وأحاسيسي، وأنا أرتع في خمائل القرآن العظيم وحدائقه متفيئًا ظلاله الوارفة، لعل الله يسعدني فأكون من الفائزين ببعض ثماره. يقول تعالى:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآَنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) القمر: 17.

وقد يتحتم عليّ أن ألفت النظر إلى شئ مهم، وهو أني لا أدعي بأن ما قمت به، هو تفسير للآيات أو شرح لها، فهذا باب له علماؤه وأساتذته، وإنما اقتصر مجهودي على ذكر الآيات وإيراد بعض تفاسيرها، وقصرت جهدي على توضيح العلاقة بين المعاني والتفاسير، كما وردت عند المفسرين، وبين المعاني النفسية، التي تنسمت عبيرها وعشت في ظلالها متفكرًا، لتلمس ما قدمته لنا الآيات، وذلك كي ترتقي أرواحنا من حضيض المادية إلى العوالم النورانية المشرقة، الأمر الذي حدا بي إلى تتبع آي القرآن العظيم، فأحصيت تسعة وثلاثين موضعًا، ورد فيها ذكر لضرب الأمثال في القرآن العظيم، يقول رب العزة تبارك وتعالى:

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) الحشر:21.

استهدف هذا الكتاب التفكر في بعض الآيات القرآنية وادراك معانيها بالجمع بين ما سطرته أقلام المفسرين، وبين تلكم المشاعر والأحاسيس النفسية التي يستشعرها اللسان القارئ والقلب المؤمن المدرك للآيات وما حوته من صور نفسية وحسية ومعنوية، استنبطها العقل بالاستبطان (Instrospection)، مستخدمًا جميع حواسه الشعورية منها واللاشعورية، إنه العقل الواعي والمتدبر والمتأمل (التأمل الارتقائي Transcendental Meditation)، إذ إن من المؤمنين من هو أشد عمقًا في تفكرهم وأكثر اهتمامًا بعبادة التفكر من غيرهم. ومعرفتهم بالشئ الذي يتفكرون فيه، وأثر الصحبة والقدوة الصالحة وغيرها من العوامل التي أرجو أن تكون مفيدة للمؤمن الذي يريد أن يعيد النظر في ما يقوم به من سلوك تعبدي، يستهدف

به التقرب إلى الله تعالى[1]. وبهذا تشترك جميع الحواس (الروح والجسد) في تعظيم وتمجيد الخالق وما يتصف به من صفات الجلال والكمال المطلق. وقد ذيلت كل آية بتوضيحات مقتضبة، ضمنتها بعضًا مما ينتابني ويكتنفني من مشاعر وأحاسيس نفسية، استشعرتها، أثناء تلاوتي لتلكم الآيات.

وقد تشكلت المادة الرئيسة لهذا الكتاب من مجموعة من الآيات القرآنية، منها ما كان المثل فيها يشكل العنصر الأبرز والمعنى المقصود بذاته في صياغ الآيات، حيث تتوفر فيه جميع أركان التشبيه: المشبه؛ والمشبه به؛ ووجه الشبه؛ وأداة التشبيه، نحو قوله تعالى:

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ)، (كَمَثَلِ الْحِمَارِ)، (كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ) ..

ومن الآيات القرآنية ما جاء المثل في طياتها وثناياها على سبيل التضمين، ولكنه يرى بوضوح ومحدد ومقصود بحيث لا يخطئه الفهم والإدراك، نحو قوله تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ). (فَاعْتَبِرُواْ يَأُوْلِي الأبْصَارِ). (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ).

إن هذا الكتاب، ليس أكثر من محاولة؛ للربط بين آي القرآن العظيم، التي ضرب الله، تعالى، فيها الأمثال للناس، وبين المفاهيم أو التصورات التي يجب أن يدركها العقل البشري لتنطبع صورتها في النفس ويستشعر القلب تأثيراتها النفسية.

1/ مالك بدري: التفكر من المشاهدة إلى الشهود، ص: 19، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض 1995م.

المقدمة

قبل الاسترسال في الحديث، يتحتم عليّ أن ألفت النظر إلى شئ مهم، وهو أني لا أدعي بأن ما قمت به، في هذا الكتاب، هو تفسير للآيات القرآنية أو شرح لها، فهذا باب له علماؤه وأساتذته. وإنما اقتصر مجهودي على ذكر الأيات القرآنية، المتعلقة بضرب الأمثال، وإيراد عدد من التفاسير للآية أو الآيات القرآنية الكريمة، ومن ثم حاولت أن أعمل على توضيح العلاقة أو الصلة بين المعاني والتفاسير، كما وردت عند المفسرين، وبين المعاني النفسية، التي تنسمت عبيرها وعشت في ظلال معانيها متفكرًا ومتأملاً، من أجل ادراك الصور والنماذج النفسية والحسية التي قدمتها لنا الآيات، وذلك كي ترتقي أرواحنا من حضيض المادية إلى العوالم النورانية المشرقة، الأمر الذي حدا بي إلى تتبع آي القرآن العظيم، فأحصيت تسعة وثلاثين موضعًا، ورد فيها ذكر لضرب الأمثال في القرآن العظيم، يقول رب العزة تبارك وتعالى:

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) العنكبوت: 43.

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) الحشر:21.

كان الهدف والقصد من وراء ذلك المسعى هو، التفكر في تلك الآيات القرآنية وادراك معانيها بالجمع بين ما سطرته أقلام العلماء المفسرين، وبين تلكم المشاعر والأحاسيس النفسية التي يستشعرها اللسان القارئ والقلب المؤمن المدرك للآيات وما حوته من صور نفسية وحسية ومعنوية، استنبطها العقل بالاستبطان (Instrospection)، مستخدمًا جميع حواسه الشعورية منها واللاشعورية، إنه العقل الواعي والمتدبر والمتأمل (التأمل الارتقائي Transcendental Meditation)، إذ إن من المؤمنين من هو أشد عمقًا في تفكرهم وأكثر اهتمامًا بعبادة التفكر من غيرهم. ومعرفتهم بالشئ الذي يتفكرون فيه، وأثر الصحبة والقدوة الصالحة وغيرها من العوامل التي أرجو أن تكون مفيدة للمؤمن الذي يريد أن يعيد النظر في ما يقوم به من سلوك تعبدي، يستهدف به التقرب إلى الله تعالى[1]. وبهذا تشترك

1/ مالك بدري: التفكر من المشاهدة إلى الشهود، ص: 19، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض 1995م.

جميع الحواس (الروح والجسد) في تعظيم وتمجيد الخالق وما يتصف به من صفات الجلال والكمال المطلق.

وإن الناظر والقارئ، بتمعن وتدبر، لآي القرآن العظيم؛ ليسترعي انتباهه ويلفت نظره ذلكم الحشد الكبير من الأمثال المنتشر بين سور وآيات القرآن العظيم، والتي استخدمت بدقة عالية وبلاغة لا متناهية، بحيث أنها تصيب كبد الحقيقة، وتبلغ لب المعنى المقصود والهدف المراد بأقل الألفاظ وأقصر العبارات، وتقول العرب، في وصف السيف الباتر، «يُصَمِّمُ أحياناً وحيناً يُطَبِّقُ[1]»، وتصف الرجل البليغ بقولها: «ورجل يُطَبقُ المَفْصِلَ، إذا أصاب الحجَّة ببلاغته[2]». ولا شك في أن الأمثال التي وردت في جميع الآيات القرآنية قد بلغت الغاية المقصودة منها دون ما نقص، ولكن السؤال هو: لدى من، أو لمن من الناس؟، والإجابة هي، لدى كل من كان له قلب واع، ولكل ذي بصر وبصيرة واستبصار، يقول تعالى:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) ق: 37.

إن الأمثال، بشكل عام، والأمثال، في القرآن العظيم على وجه الدقة والخصوص، تستهدف إصلاح السلوك المعوج والمنحرف عن السواء لتعيده إلى سواء السبيل وجادة الطريق، وترمي، الأمثال القرآنية إلى معالجة علل النفوس وتنقية القلوب مما فيها من أدران، يقول تعالى:

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آَيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) المطففين: 13-14.

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) آل عمران: 7.

1/ إسماعيل بن حماد الجوهري: مختار الصحاح، ص: 3004، المصدر موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول.

2/ محمد بن حسين بن دريد: جمهرة اللغة، ص: 1109، المصدر موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول.

وعليه فإن المثل يمكن أن يخلف أعظم الأثر في النفس البشرية، ويترك أقوى التأثيرات على السلوك الأنساني؛ مما يجعل الإنسان يتمثل ويدرك، في اللحظة الآنية، خطورة الموقف، ويستشعر عظم المسئولية الملقاة على عاتقه، يقول الفياض: والأمثال في القرآن العظيم تجسد النموذج وتشخصه حتى لتكاد تنظر إليه ماثلاً شاخصًا، وعملاً وسلوكًا وأخلاقًا وتصرفات، فتشهد أقبح إنسان وأسوأ عمل، وأردأ سلوك يمكن أن يصدر عن إنسان وأسوء مصير يمكن أن يصير إليه، فلا تملك إلا أن تفر بنفسك وبدينك من مشابهته[1].

وفي ذات الآن يوجد، في آيات القرآن العظيم وما فيها من أمثال، النموذج الصالح والمثال الحسن الذي يمكن لكل إنسان أن يتشبث به وأن يتمثله في نفسه وفي سلوكه وفي سائر أعماله ..، طمعًا في الوصول إلى رضى الله، تعالى، والفوز بالجنة ونعيمها المتصل بلا إنقطاع، يقول تعالى:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) الفتح: 29.

وقد عملت على تذييل كل آية من الآيات التي تضمنت مثلاً، بتوضيحات قصيرة ومقتضبة، ضمنتها بعضًا مما كان ينتابني ويكتنفني من مشاعر وأحاسيس نفسية، كنت أستشعرها، دومًا، أثناء اطلاعي على الآيات التي أوردتها في هذا السفر.

ـ الأمثال في اللغة:

يتضمن لفظ مثل العديد من المعاني، منها، المعاني البلاغية والأدبية، والمعاني التي أوردتها كتب التفاسير، بالإضافة إلى المعاجم اللغوية، وهي مقصد حديثنا هنا، المَثَل[2]، مفرد والجمع أمثال، وهو في الاصطلاح اللغوي يشير إلى معنى المِثْل والنَّظير.

1/ محمد جابر الفياض: الأمثال في القرآن الكريم، ص: ، ط2، دار الكتاب الإسلامي (جدة) 1995م.
2/ الموسوعة العربية العالمية اصدار 2004م.

والمثل، في مجال الأدب، يقصد به: قول موجز سائر صائب المعنى تُشبه به حالة لاحقة بحالة سابقة. والمثل، بهذا المعنى، يشكل جنسًا أدبيًا له سماته ومواصفاته الخاصة به، مثله، في ذلك مثل فنون الشعر وأضرب النثر الأخرى، كالخطابة والقصة، وللمثل مضرب ومورد، فضرب المثل يعني إطلاقه أو استخدامه في الحالات اليومية المتجددة التي تشبه الحالة الأولى، ويشبه مورد المثل الحالة الأصلية التي قيل فيها ابتداءً، وليس من الضروري أن يكون لكل مثل مورد أو قصة كما يعتقد بعض الناس، فهناك أمثال كثيرة لا ترتبط بحادثة معينة، مثل تلك النماذج المقتبسة والمجتزأة من الأبيات الشعرية صدرًا أو عجزًا، أو التي قد تكون، استخدمت كنوع من الحكمة من ذلك، على سبيل المثال:

- (أنا الغريق فما خوفي من البلل).
- (وفي عُنق الحسناء يُستحسن العقد).
- (مصائب قوم عند قوم فوائد).
- (ومن قَصَد البحر استقل السواقيا).
- (وخير جليس في الزمان كتاب).

ولا نريد، هنا، أن نحشد كل تلك المعاني اللغوية التي ذكرتها المعاجم وأوردتها كتب اللغة، وهي كثيرة، بيد أننا سنقصر الحديث ونختصره على بعض منها:

- مختار الصحاح للرازي: مثل، مِثْل كلمة تسوية، يقال هذا (مِثْلُه) و(مَثَلُه) كما يقال شِبْهُه وشَبَهُه. و(مَمَثلُ) الشئ، أيضًا، بفتحتين أي صفته. و(المِثَال) ... والجمع (أمثِلة) و(مثُل) ....، و(التمثال) الصورة والجمع (تماثيل) ...[1].

- لسان العرب: ....، الفرق بين المماثلة والمساواة أن المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتفقين، أما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين، ....، وإذا قيل هو مثله على الإطلاق فمعناه أن يسد مسده، وإذا قيل هو مثله في كذا فهو مساو له في جهة دون جهة، ...[2].

- ويقول البوسي في معنى المثل ....، المثل بفتحتين ....، «هذا مثل ذلك» أي شبهة؛ ويقال أيضاً: « هو مِثلُه ....، كما يقال شبه وشبيه» فإذا قيل: هو مثيله، وهم أميثالهم بالتصغير،

1/ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، مادة (م ث ل). دار الكتاب العربي (بيروت) 1979م.

2/ محمد بن مكرم بن علي ... بن منظور: لسان العرب، مادة _م ث ل). دار المعارف (مصر) 1959م.

فقد أريد إنّ المشبه حقير، كما أن هذا حقير. ومن هذا قولهم: (مسترد لمثيله) أي مثله يطلب ويشرح عليه. ومنه الأمثال من الناس وهو الأفضل، لأن معناه الأشبه بالأفضل والأقرب إلى الخير، وأماثل القوم خيارهم ...، وتقول: مثلت الشيء بالشيء إذا شبهته به تمثيلا ...، وأما التمثال بالكسر فالصورة، جمعها تماثيل. يقال: مثله له صورة له حتى كأنه ينظر إليه. وتمثل تصور. قال تعالى: (فتمثل لها بشراً سوياً.) وتماثل الشيئان: تشابها. ومثل الشيء: مقداره[1].

ـ مفهوم المثل:

إن الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه، وحلى بجواهره كتابه. وقد نطق كتاب الله تعالى، وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها، كما لم يخل كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، وهو أفصح العرب لساناً، وأكملهم بياناً، فكم في إيراده وإصدإره من مثل يعجز عن مباراته في البلاغة كل بطل[2]. والأمثال ... هي وَشيُ الكلام، وجوهر اللفظ، وحَلْى المعاني، والتي تخيَّرتْها العربُ، وقَدَّمتها العجم، ونُطِق بها «في» كل زمان، وعلى كلِّ لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يَسِرْ شيءٌ مَسِيرَها، ولا عَمَّ عُمومَها، حتى قيل: أسير من مثل. وقال الشاعر:

ما أنتَ إلا مَثَلٌ سائرُ يَعْرفه الجاهلُ والخابرُ

كذلك ضرب الله، تعالى، الأمثالَ في كتابه العزيز، وضربها رسوله، صلى الله عليه وسلم، في أحاديثه، قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَه) الحج: 73.**

جاء في كتاب مجمع الأمثال[3]: سأل النبي، صلوات الله وسلامه عليه، عمرو بن الأهتم عن الزبرقان فقال عمرو: مطاع في أدنيه شديد العارضة مانع لما وراء ظهره فقال الزبرقان: يا رسول الله إنه ليعلم مني أكثر من هذا ولكنه حسدني فقال عمرو: أما والله إنه لزمر المروءة

1/ الحسن بن محمد بن مسعود ... البوسي: زهر الأكم في المثل والحكم، ص: 10، المصدر موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول.

2/ الأبشهي: المستطرف في كل فن مستظرف، ص: 64-65، المصدر: موسوعة الشعر العربي الاصدار الأول.

3/ أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني: مجمع الأمثال، ص: 1، المصدر: موسوعة الشعر العربي الاصدار الأول.

ضيق العطن أحمق الوالد لئيم الخال والله يا رسول الله ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخرى ولكني رجل رضيت فقلت أحسن ما عملت وسخطت فقلت أقبح ما وجدت. فقال عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان لسحراً».

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى». «نية المرء خير من عمله». «آفة العلم النسيان». «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». «أنزلوا الناس منازلهم». «اليد العليا خير من اليد السفلى». «من مات غريباً مات شهيداً». «مطل الغني ظلم». «يد الله مع الجماعة». «الجار قبل الدار». «الرفيق قبل الطريق». «من غشنا فليس منا». «سيد القوم خادمهم». «الحياء شعبة من الإيمان». «تخيروا لنطفكم». «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول». «حدث عن البحر ولا حرج»[1].

ومن الأحاديث النبوية الشريفة، الصريحة في ذكر الأمثال وضربها للناس، قوله صلوات الله وسلامه عليه:

- «ضرب الله مثلاً صِراطاً مُستقيماً وعلى جَنْبي الصراط أبوابٌ مُفَتَحة، وعلى الأبواب سُتور مَرْخِيَّة، وعلى رأس الصراط داعٍ يقول: ادخُلوا الصراطَ ولا تَعْوَجُّوا. فالصراطُ الإسلامِ، والستورُ حدودُ الله، والأبواب محارمُ الله، والداعي القرآن».
- وقال لأبي سُفْيان: «أنت أبا سفيان كما قالوا: كلُّ الصيد في جَوْف الفَرَا»
- «إياكم وخَضرَاءَ الدِّمن. قالوا: وما خَضراء الدِّمن؟ قال: المرأةُ الحَسْناء في المَنْبت السّوء».
- «إنّ من البيان لَسِحراً».
- «لا يُلْدغ المؤمن من جُحر مرَّتين». وقال: «الحَرْب خدَعة».

كذلك يمكن القول بأن المثل يشكل أسلوبًا ثقافيًا يحمل في ثناياه فلسفة اجتماعية، كما أنه يتسم ببعض السمات التي تجعله أكثر سهولة من حيث الفهم، الأمر الذي يسهم في شيوعه وذيوعه بين أفراد المجتمع، إذ يجب أن يتميز بالبساطة والإيجاز وأن يكون له معنى يطابق واقع الحال الذي يستعمل فيه، أي أنه عبارة فنية سائرة موجزة تصاغ لتصوير

1/ أحمد بن محمد بن عبده ربه: العقد الفريد، ص: 821، المصدر: موسوعة الشعر العربي الاصدار الأول.

موقف أو حادثة، يستهدف خلاصة مضمون التجارب الإنسانية، ومن ثم تظل العبارة (المثل) مستخدمة باستمرار وتتناقلها الأجيال، طالما تشابهت المواقف التي يمكن أن تسخدم فيها. قال إبراهيم النظام: يجتمع في المثل أربع لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة. وقال ابن المقفع: إذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث[1].

وقد أشتهر العرب في ثقافتهم القديمة بكثرة ضرب الأمثال واستخدام الحكم المأثورة، وذلك لما لها من بلاغة تعبيرية وقوة على التأثير في السامع في الموقف المطابق لضرب المثل، مثل قولهم: (على أهلها جنت براقش)، (لا دخان بلا نار)، (كل فتاة بأبيها معجبة)، (سبق السيف العذل)، (ليس كل ما يلمع ذهبًا)، (أحذر من غراب)، (الحذر لا ينجي من القدر)، (الكلاب تنبح والقافلة تسير).

وتشير بعض الدراسات التي أجريت، في هذا المضمار[2]، إلى أن بعض الأمثال العربية قد يأتي ذكرها مرتبطًا بأسماء ذات شهرة، ولكن ليست بالضرورة أن يكون الشخص المذكور والذي ارتبطت به هو صاحبها، مثل: (جزاء سنمار)، (أشأم من البسوس)، (أبصر من زرقاء اليمامة)، (أعيا من باقل)، (أفصح من سحبان وائل)...، وغيرها، وربما احتفظت بعض الأمثال العربية المدونة بأصل قصتها وحدّدت قائلها مثل: (خلا لك الجو فبيضي واصفري) لطرفة بن العبد، (سبق السيف العذل) (إن الحديث ذو شجون) لضبة بن أد، (أنا ابن جلا) لسحيم بن وثيل الرياحي، (إن غدًا لناظره قريب) لقراد بن أجدع في قصته مع النعمان بن المنذر. وللأمثال، من السمات، ما يميزها عن غيرها من الأحاديث والأقوال المستخدمة والمتداولة بين أفراد المجتمع:

-يكون المثل موجزًا ومختصرًا.
-يصيب كبد الحقيقة ولب المعنى.
-يغني عن كثرة الحديث والإسهاب في الكلام.
-مطابق لواقع الحال.

1/ أحمد بن عبد الوهاب ... شهاب الدين النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ص: 811، المصدر موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول.
2/ الموسوعة العربية العامية، إصدار 2004م

-وضوح العبارة وجودة السبك.
-سهولة الفهم.
-الذيوع والإنتشار بين الناس (معروف/مشهور).

ومن المتعارف عليه أنه لا تخلو أمة من الأمم ولا شعب من الشعوب من وجود قدر من الأمثال التي تمثل الوعاء أو الإناء الثقافي الذي حفظ عادات الأمم وثقافات الشعوب وتقاليدها، لأن تلك العبارات (الأمثال)، تمثل خلاصة حكمة الحكماء وعصارة تجارب الخبراء، وهي التراث المتناقل عبر الحكايات والقصص في الآداب الشعبية الموروثة والمتوارثة، وتعتبر الأمثال، موردًا خصبًا وميدانًا فسيحًا للدراسة لدى علماء الاجتماع، ودارسي الأدب والتراث الشعبي (الفلكلور)، لاسيما في مجال الأبحاث التي تطبق على القبائل والشعوب البدوية غير المتمدنة، في موطنها الأصلي، قبل أن تختلط وتتأثر بمؤثرات المدنية، وبالتالي تندثر محتوياتها ذات البعد الثقافي والفكري والفلسفي الذي يمثل أسلوبًا الاجتماعيًا لعادات وأعراف وتقاليد تلك الشعوب والقبائل القديمة ذات الطابع الإنساني والفطري النقي، والذي لم تمسسه يد الحداثة بالتغيير، فحفظ لنا الصورة الحقيقية والأصيلة لحياة المجتمعات السالفة وأساليب وطرق تفكيرها، وأنماط معيشتها، وعباداتها ومعتقداتها. ويشتمل، المفهوم القديم للكلمة (مثل)، على التقارب، الذ هو أقرب إلى التماثل والتطابق؛ الأمر الذي أسهم في بقائه وساعد في كثرة استخدامه، بحيث لا يبلى برغم تقادم العهود وتطاول الأزمنة، ولذلك ظلت الأمثال مستخدمة على مر الزمان دون أن يدري أحد متى بدأ استخدامها، كما أن في كثير من الأحيان لا ندري مبدعها ومبتكرها الأول.

وقد سبق وأن أشرنا إلى اهتمام العرب، في جاهليتهم، بجماليات المثل وقوة تأثيره في النفس الإنسانية فسعوا إلى الاهتمام بالأمثال اهتمامًا بالغًا، ويكفي أن نقول بأن القرآن العظيم قد ضرب الأمثال في الكثير من أياته، الأمر الذي حدا بخدام النص الديني إلى المبادرة لجمع وتصنيف الأمثال القرآنية والأمثال النبوية منذ بدايات التدوين والتأليف حولها، وقد تنبه المؤلفون العرب إلى غيرها من الأمثال العربية القديمة في الجاهلية والعصور الإسلامية وإلى الأمثال الشعرية وغيرها، ونجد أن ابن النديم قد ذكر، في كتابه (الفهرست)، عددًا كبيرًا من المصنفات التي خصصها ذووها لجمع الأمثال، منذ منتصف القرن الأول الهجري، وقد وصل إلينا عدد غير قليل من تلك المؤلفات، والتي من بينها:

-كتاب الأمثال للمفضل الضبي (170هـ).

-كتاب الأمثال لمؤرج السدوسي (195هـ).

-كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ).

-كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة (291هـ)،.

-كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (395هـ).

-كتاب مجمع الأمثال للميداني (518هـ).

-كتاب المستقصي في أمثال العرب للزمخشري (538هـ).

ويعتبر كتاب الميداني، من أكثر المؤلفات، التي صنفت في مضمار ثقافة جمع الأمثال ودراستها، من حيث المادة والضبط والتدقيق، وليس في هذا ما يقدح في مؤلفات المؤلفين الآخرين، أو ينفي عنهم اهتمامهم بجودة مصنفاتهم أو عدم الحرص على تقديمها للقارئ بشكل يتسم بقدر عال من الفصاحة والبلاغة البيانية، فقد عمدوا إلى ترتيبها بحسب الطرائق المعجمية، والتي جاءت مرتبة على حسب الترتيب الألف بائي، كما نجدهم قد أوردوا الكثير من القصص والحكايات التي ارتبط ذكرها بالمثل، كذلك، يدخل في الأمثال الأبيات التي اصطبغت بالحِكَم وأخذت طابعها، كما في شعر زهير ابن أبي سلمى، وأبو نواس، وأبو العتاهية، والمتنبئ ....، وغيرهم من الشعراء:

ومن لم يصانع الدهر في أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

***

أعلمه الرماية كل يوم   فلما اشتد ساعده رماني

وعلمته نظم القوافي   فلما قال قافية هجاني

***

الناس في غفلاتهم   ورَحَى المنيَّة تطحن

***

المستجير بعمرو عند كُربته   كالمستجير من الرمضاء بالنار

***

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

***

كلما أنبت الزمان قناة ركَّب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن تتعادى فيه وأن تتفانى

***

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لاتشتهي السفن

***

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لايظلم

***

من يَهُنْ يسهل الهوان عليه ما لجرح بميِّت إيلامُ

وللأمثال، في ثقافات الأمم وعادات الشعوب، مرتبة سامية وجليلة، قد يقل نظيرها في الجنس الأدبي الذي خلدته وحفظته لنا الذاكرة الشعبية التراثية للمجتمعات القديمة، فهي تمثل تجربة الكبار وخلاصة حكمة الأفكار، وتعتبر الأمة العربية أمة نموذجية في هذا المضمار الثقافي، وإذا تأملنا تراثها الثقافي، وجدنا ان الشعر هو حاديه ورائده الأوسع شهرة والأكثر انتشارًا، غير أن اهتمام العرب بالشعر وانكبابهم عليه، باعتباره يشكل دوحتهم الغناء، لم يمنعهم من الاحتفاء بغيره من أجناس الأدب وفنونه الأخرى، فقد وجد النثر الأدبي أرضًا واسعة كثيرة الخصب قليلة الجدب، فباض وأفرخ وطال واستطال في خطب الخطباء وأمثال الحكماء، ويتجلى ذلك الاهتمام في الكم الهائل من الحكم والأمثال العربية الذي ذاع صيته وشاعت شهرته على أيد العلماء الذين دوَّنوه وحفظوه في عدد من مؤلفاتهم.

سيكولوجية المعتقدات الدينية وتأثيراتها النفسية

قبل بدء الحديث عن، سيكولوجية المعتقدات الدينية، أود أن أوضح، أني لست، هنا، في معرض الاهتمام بعلم النفس كدراسة تفصيلية أو الحديث عن مجالاته المتسعة ..، بقدر ما استهدفت وسعيت إلى العمل على توضيح ما تتضمنه بعض من الأمثال، المستخدمة في أي القرآن، من صور ومفاهيم ذهنية، ومن ثم تقريبها للصور الحسية المدركة بالحواس الإنسانية الظاهرة.

يرى نجاتي[1]: إن عملية تكرار الصور، أو عرض أراء وأفكار معينة، وبشكل مستمر، على الناس يؤدي عادة إلى استغرار هذه الأفكار وتثبيتها ورسوخها في الأذهان، وقد بينت دراسات علماء النفس المحدثين أهمية التكرار في العملية التعليمية. ...، ونحن نجد، في القرآن العظيم، تكرارًا لبعض الحقائق المتعلقة بالعقيدة والأمور الغيبية التي يريد القرآن تثبيتها في الأذهان. وقد استخدم القرآن العظيم الكثير من الأمثال لتجسيد العديد من الصور المعنوية والغيبية، حيث تضمنت آي القرآن العظيم، تكرارًا مكثفًا للفظ مثل ومشتقاته اللفظية بلغت 122تكرار (اثنين وعشرين ومئة تكرار)؛ مما يدلل على أن الله، تعالى، يريد أن يلفت النظر ويشد انتباه الخلق لتلك الأهمية الكبرى التي شملتها الأمثال وما تضمنته، تلكم الأمثال، من عبر ودروس، لابد من الوقوف عندها طويلاً وتدبر ما فيها من معاني تضمنته أحرف قليلة وعبارات قصيرة.

* جدول يوضح عدد مرات تكارا لفظ (جزر مثل) في آيات القرآن العظيم.

اللفظ	التكرار
مثل	46
مثلاً	18
كمثل	13
مثله	11

1/ محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، ص: 176، دار الشروق (مصر) 2001م.

الأمثال	10
مثلهم	5
أمثالكم	4
ومثلهم	3
مثله	3
مثل	3
أمثالهم	2
كمثله	1
كأمثال	1
المجموع	**122**

يلعب السلوك (Behaveior) الديني أو والمعتقدات الدينية دورًا في غاية الأهمية في حياة جميع الناس، سواء أكان ذلك على مستوى الجماعات أو الأفراد، فالدين يعتبر من أبرز مكونات الشخصية (Personality) لدى الفرد، كما يشكل دافعًا وحافزًا قويًا، لا يمكن تجاهله، لاسيما في مجال إشباع حاجات النفس وتلبية رغباتها وشهواتها، وبالأخص تلك الشهوات المرتبطة بالشهوات والرغبات الجسدية (الغرائز)، والتي تعرف بمتطلبات الجسد الضرورية والحيوية، كالحاجة إلى الغذاء، والنوم، التخلص من الفضلات، الجنس، الملبس، المأوى والسكن، ...، وتلك الغرائز الجسدية تحتاج من الفرد إلى مجهود ذهني وبدني من أجل إشباعها؛ الأمر الذي جعل هناك صلة، لا يمكن أن تنفصم عراها، بين الجسد، كمكون مادي، وبين النفس، كمكون روحي، ويمكن القول بأنها تمثل علاقة تبادلية، من حيث التأثير والتأثر، فللانفعالات النفسية تأثيرها الفعال في الجسد، كما أن النفس، ذاتها، تتأثر بكل ما يعتري الجسد من أحوال وتغيرات تصيب أي عضو من أعضاء الجسم، وتتجلى تلك العلاقة، بوضوح، في الاضطرابات النفس جسمية أو ما يسمى بالسيكوسوماتك ()، والتي تعتبر من الأمراض العضوية أو العلل الجسدية، إلا أن منشأها ومرجعها نفسي، من ذلك، على سبيل المثال، القرح المعوية، الربو (Asthma)، ارتفاع ضغط الدم، السمنة والبدانة المفرطة (Obestity)، الروماتيزم (آلام المفاصل)، الحساسية والطفح الجلدي، والضعف

الجنسي، البرود الجنسي...، وجميعها ناجمة عن الصدمات والإنفغلات والتوترات النفسية التي يتعرض لها الإنسان، في حياته، ولا يستطيع أن يمتصها أو يتغلب عليها أو حتى أن يتقبلها ويتعايش معها، عند ذلك تتحول تلك الإنفعلات النفسية إلى شكل من أشكال الاضطرابات الإنفعالية[1]، التي تؤثر في الجسم، وتحيل حياة الفرد، النفسية والجسدية، إلى جحيم. يقول ابن عربي، في كتابه الفتوحات، الأمراض أنواع ثلاثة: بدنية، ونفسية، وعقلية، لا رابع لها[2].

- الأراض البدنية: هي التي يعرفها علماء الرسوم (يعني الأجسام، أي الأطباء العضويين).

- والأمراض العقلية: هي الشبه المضلة القادحة في الأدلة وفي الإيمان تحول بين العقل من العاقل وبين صحو الإيمان. والأمراض العقليه فهي القادحة في الإيمان والإيمان.

- والأمراض النفسية: هي الهموم المشتملة على أداء حق الله ...، والأمراض النفسية، مع وجود الإيمان، وقاية لها من التفل، إذ إن الإيمان، في نفس المؤمن، بمنزلة العقل لمريض المرض البدني، فهو يؤدي صلاتة في مناجاة ربه ومشاهدته، كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يجهز الجيش في الصلاة. فإن المؤمن الصادق ماله حديث إلا مع ربه.

ولا شك في أن الله، تعالى، يعلم، علم اليقين، ما تنطوي عليه تلك النفس التي خلقها وأودعها بين جنبي الجسد الإنساني؛ ولذلك يدعونا الإسلام إلى حفظ النفس والعقل والمال والعرض[3]، ويعتبرها من الأصول التي يجب على كل إنسان، ولا نقول مسلم، حفظها وحمايتها من التلف وصيانتها من الفساد، إذ إن أهميتها من أهمية وجود الإنسان نفسه، كذلك نجد أن الدين الإسلامي يرعى الإنسانية، جميعها، منذ، لا نقول لحظة الميلاد، وإنما منذ اللحظة التي التقى فيها الحيوان المنوي الذكري بالبييضة الأنثوية (التخصيب)، وإلى اللحظة التي تفارق فيها الأرواح الأجساد، سواء طالت وامتدت تلك المسافة الزمنية أم قصرت، وتشمل

1/ عبد الرحمن العيسوي: موسوعة ميادين علم النفس، ج10، الإسلام عند علماء النفس، ص: 15، دار الراتب الجامعية، (مصر) 2004م.

2 / محمد بن علي بن محمد بن عربي: الفتوحات المكية، ص: 1159، المصدر موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول.

3/ داؤد بن عمر الأنطاكي: تزيين الأسواق في أخبار العشاق، ص: 443. المصدر موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول.

تلك الرعاية الربانية والعناية الإلهية الجانبين، الجانب البدني العضوي، التي تتمثل في حماية وحفظه الجسم من الأمراض قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) الإسراء: 32-35.

وقال، صلوات الله وسلامه عليه، (تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء). وقال صلى الله عليه وسلم: (ما أنزل الله داءً إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله). ولم تقف الرعاية الربانية، لخلقه، عند حد العناية بالجسد وإنما أضافت إليها الجانب النفسي الروحي، في الإنسان قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) الشمس: 7-10.

وقد ضرب الله، تعالى، الكثير من الأمثال في آي القرآن العظيم، لعل الهدف منها كان هو نقل الصورة المعنوية والبعيدة عن الحواس وتقريبها إلى الأذهان حتى تتمكن النفس الإنسانية من إدراك أو تتصور الصورة الحقيقة لما سيحدث بعد الموت من نعيم لا ينفد أو جحيم ممتد، فهي تأتي على سبيل التشبيه والتمثيل فتزيد الكلام قوة وبلاغة، وقال العربي: البلاغة التقرّب من المعنى البعيد، والتباعد من حشو الكلام، وقرب المأخذ، وإيجازٌ في صواب، وقصدٌ إلى الحجّة، وحسنُ الاستعارة.

ومثله قول الآخر: البلاغة تقريب ما بعد من الحكمة بأيسر الخطاب.

والتقرّب من المعنى البعيد، وهو أن يعمد إلى المعنى اللّطيف فيكشفه، وينفى الشواغل عنه، فيفهمه[1].

ويقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى:

1/ عثمان بن جني الموصلي: الخصائص، ص: 530. المصدر موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول.

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) الزمر:27.

أي بينا للناس فيه بضرب الأمثال (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تعالى: (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ) الروم: 28. أي تعلمونه من أنفسكم، وقال عز وجل: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) العنكبوت: 43، ...، ثم قال: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ) الزمر: 29، أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، (وَرَجُلًا سَلَمًا) أي سال (لِرَجُلٍ) أي خالص لا يملكه أحد غيره (هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) ...، قال ابن عباس: ...، فلما كان هذا المثل ظاهرًا جليًا قال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ) أي على إقامة الحجة عليهم (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[1].

ولنقف مع بلاغة أبي تمام الآنية وحسن بداهته اللحظية، وهو يقرب الصورة البعيدة التي أرادها إلى الأذهان التي لم تدرك غايته في تلك اللحظة التي كان ينشد فيها إحدى مدائحه أمام الأمير، حيث يقول[2]:

إِقْدَامَ عَمْرٍو في سَمَاحَةِ حَاتِمٍ في حِلْمِ أَحْنَفَ في ذَكَاءِ إِيَاسِ

فما كان من الكندي غلا أن قلل من شأن نظمه ومدحه للأمير، بقوله: ما زدت على أن شبهت الأمير بصعاليك العرب، أو: إن الأمير فوق من وصفت، فأطرق أبي تمام، قليلاً، ثم زاد في القصيدة بيتين لم يكونا فيها:

لاَ تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُوداً في النَّدَى وَالبَاسِ

فالله قد ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُورِهِ مَثَلاً منَ المِشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ

وتفاجأ الحاضرون من دقة تصويره وسعة عقله وتفتح مداركه، وتعجب الكندي من سرعة بديهته الآنية.

فإذا كانت تلكم الحكاية تعبر عن فعل بشري إنساني لا حول له ولا قوة؛ فما بالك برب العزة الذي تنزه عن النقص وتبارك وتعالى عن كل وصف!!!؟؟ يقول تعالي:

1/ تفسير الإمام الحافظ ابن كثير، ج4، ص: 52، المكتبة التوفيقية (القاهرة).
2 / محمد بن عبد الله بن أبي بكر الصولي: أخبرا أبي تمام، ص: 93.

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) التوبة: 111.

وكأني بمدارك المسلمين وعقول الصحابة، تشرئب إلى المعنى المقصود من الآية، تريد أن تتعرف على صورة الجنة التي وعدوا بها مقابل بيعهم لأرواحهم؛ فتأتيهم الصوة التقريبية، وهي أكثر إثارة للنفوس وتشويقًا للعقول، في الحديث الذي رواه أنس (عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»)[1].

ولنتتبع ما تناولته كتب التفسير في شأن بعض آي القرآن العظيم وما اشتملت عليه من تشبيهات بلغت الغاية في الدقة التصويرية.

(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) البقرة: 171.

جاء في تفسير هذه الآية الكريمة (البقرة 171) في تفسير القرطبي: شبه تعالى واعظ الكفار وداعيهم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، بالراعي الذي ينعق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه، ولا تفهم ما يقول، هكذا فسره ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي والزجاج والفراء وسيبويه، وهذه نهاية الإيجاز. قال سيبويه: لم يشبهوا بالناعق إنما شبهوا بالمنعوق به. والمعنى: ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم، فحذف لدلالة المعنى. وقال ابن زيد: المعنى مثل الذين كفروا في دعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائح في جوف الليل فيجيبه الصدى، فهو يصيح بما لا يسمع، ويجيبه ما لا حقيقة فيه ولا منتفع. وقال قطرب: المعنى مثل الذين كفروا في دعائهم ما لا يفهم، يعني الأصنام، كمثل الراعي إذا نعق بغنمه وهو لا يدري أين هي. قال الطبري: المراد مثل الكافرين في دعائهم آلهتهم كمثل الذي ينعق بشيء بعيد فهو لا يسمع من أجل البعد، فليس للناعق من ذلك إلا النداء الذي يتعبه وينصبه. ففي هذه التأويلات الثلاثة يشبه الكفار بالناعق

---

1 / محمد بن محمد بن محمد الغزالي: سر العالمين وكشف ما في الدارين، ص: 76. المصدر موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول.

الصائح، والأصنام بالمنعوق به. والنعيق: زجر الغنم والصياح بها، يقال: نعق الراعي بغنمه ينعق نعيقا ونعاقا ونعقانا، أي صاح بها وزجرها[1].

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) البقرة: 261.

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة (البقرة261)[2]: هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) ...، ولهذا قال تعالى: (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) البقرة: 264-265.

وتناول تفسير الجلالين الآيتين الكريمتين (البقرة: 264-265)، بالشرح والتفسير التالي:

(يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم) أي أجورها (بالمن والأذى) إبطالاً (كالذي) أي كإبطال نفقة الذي (ينفق ماله رئاء الناس) مرائياً لهم (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) هو المنافق (فمثله كمثل صفوان) حجر أملس (عليه تراب فأصابه وابل) مطر شديد (فتركه صلداً) صلباً أملس لا شيء عليه (لا يقدرون) استئناف لبيان مثل المنافق المنفق رئاء الناس وجمع الضمير باعتبار معنى الذي (على شيء مما كسبوا) عملوا أي لا يجدون له ثوابا في

1/ تفسير القرطبي:
2/ ابن كثير:

الآخرة كما لا يوجد على الصفوان شيء من التراب الذي كان عليه لإذهاب المطر له (والله لا يهدي القوم الكافرين).

(ومثل) نفقات (الذين ينفقون أموالهم ابتغاء) طلب (مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم) أي تحقيقا للثواب عليه بخلاف المنافقين الذين لا يرجونه لإنكارهم له ومن ابتدائية (كمثل جنة) بستان (برُبوة) بضم الراء وفتحها مكان مرتفع مستو (أصابها وابل) [مطر غزير] (فآتت) أعطت (أكْلها) بضم الكاف وسكونها ثمرها (ضعفين) مثلي ما يثمر غيرها (فإن لم يصبها وابل فطلٌّ) مطر خفيف يصيبها ويكفيها لارتفاعها ، المعنى: تثمر وتزكو كثر المطر أم قل فكذلك نفقات من ذكر تزكو عند الله كثرت أم قلت (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم به.

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) آل عمران:117.

أورد صاحب كتاب أيسر التفاسير[1]، في تفسيره للمعنى الآية الكريمة (آل عمران: 117)، وجه الشبه بين كل مما يؤمله الكفار من ثواب أخروي، وبين البرد الشديد الذي يعمل على هلاك الزروع، وهو أمر فيه الكثير من الشعور بالإحباط النفسي لأولئك الكفرة، فقال:

مَثَلُ ما ينفق الكافرون في وجوه الخير في هذه الحياة الدنيا وما يؤملونه من ثواب، كمثل ريح فيها برد شديد هَبَّتْ على زرع قوم كانوا يرجون خيره، وبسبب ذنوبهم لم تُبْقِ الريح منه شيئًا. وهؤلاء الكافرون لا يجدون في الآخرة ثوابًا، وما ظلمهم الله بذلك، ولكنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وعصيانهم.

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) الحديد: 20.

جاء في تفسير هذه الآية الكريمة (الحديد: 20)، في كتاب أيسر التفاسير[2]:

1/ أبو بكر الجزائري: أيسر التفاسية، ج1، ص: 77.
2/ المصدر السابق.

اعلموا، أيها الناس، أنما الحياة الدنيا لعب ولهو، تلعب بها الأبدان وتلهو بها القلوب، وزينة تتزينون بها، وتفاخر بينكم بمتاعها، وتكاثر بالعدد في الأموال والأولاد، مثلها كمثل مطر أعجب الزُّرَّاع نباته، ثم يهيج هذا النبات فييبس، فتراه مصفرًا بعد خضرته، ثم يكون فُتاتًا يابسًا متهشمًا، وفي الآخرة عذاب شديد للكفار ومغفرة من الله ورضوان لأهل الإيمان. وما الحياة الدنيا لمن عمل لها ناسيًا آخرته إلا متاع الغرور.

ولعل القصد من إيراد تلك التفاسير السابقة هو التركيز على موضوع التمثيل والتشبيه الوارد في الآيات التي تم إيرادها، إلا أن الغرض الدقيق، إن شئنا الدقة، من استعراض تلك التفاسير هو إبراز الصورة النفسية للمثل وما يتضمنه من شعور بالإحباط لدى الطائفة الخاسرة، وما فيه من بشريات وآمال بالنسبة للطائفة الرابحة من الناس، فالنتدبر قوله تعالى:

(كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ)

لقد قرنت الآية بين الكافر والبهائم، وهو أسوء يمكن أن يطلق على الإنسان، وهو نعت يمكن أن يصيب النفس الإنسانية بالكدر والضيق ، فإن كان الإنسان يغضب حين يوصف بأنه لا يعي أو لا يدرك ولا يفهم ..، فكيف به حين يشبه بالبهائم، أو بالأصنام التي لا تستجيب للدعاء والنداء؟؟!!!؟، إنه بالفعل تمثيل وتشبه في غاية الدقة الوصفية والبلاغة الخطابية، إنه أمر مقزع ومؤلم لمن كان يملك ذرة من عقل يدرك بها المراد من التشبيه والمقصود من المعنى.

(كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ)

يرسم لنا المثل، في هذه الآية، صورة تشجيعية رائعة الجمال، تستشعر النفس الإنسانية من خلالها لذة الإنفاق وحلاوة العطاء والبذل في سبيل الله؛ وذلك حين يتذكر المؤمن ما ينتظره من ثواب وفير وجنات وارفة الظلال، فلا يزداد إلا إنفاقًا طلبًا لما عند الله من الخير العميم والنعيم المقيم.

(كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا)

(فمثله كمثل صفوان) تتجسد شخصية المرائي، الذي لا نفع فيه ولا جدوى منه، في صورة صخر أملس يكسوه تراب تغسله الأمطار، ويتجلى وجه الشبه، بين المشبه (المرائي) والمشبه به (الصخر) في عدم المنفعة في كليهما، إذ لا فائدة ترتجى من الصخر في مجال الخصب والنماء، فلا هو يمسك الماء ولا هو ينبت الزرع، فالمرائي هو الصخر الأملس و أعماله هي التراب. أما عن الصورة النفسية فستتكشف لصاحبها وللناس أجمعين، في الشعور بالخزي والعار والحسرة في يوم البعث والنشور، حيث لا ينفع الندم، يقول تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً) النور: 39.

(كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَ ابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ)

في المثال، المذكور في الآية السابقة، انعكست الصورة النفسية تمامًا، فالمثال يجسد الصورة المثالية لنفس المؤمن الذي هو أشبه شئ بحديقة أو ببستان كثير الشجر كثيف الثمر، أي أنه كثير العطاء في سبيل الله، والمؤمن لا يجحد نعم الله، تعالى، ولا ينسى فضله عليه، سواء أكثر العطاء أم قل، ففي كلا الحالين هو يعطي وينفق بسخاء نفس وقلب راض، وينتظر، من الله تعالى، الجزاء والثواب المضاعف يوم يقوم الناس لرب العالمين:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) البقرة: 245.

(كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ)

يجسد هذا المثال الشعور بالإحباط النفسي الشديد؛ وذلك حين يرى الكافر كل آماله وأحلامه تتحطم أمام ناظريه، فترتسم ملامح الفجيعة بشكل واضح على تلكم الجوه التي كانت تمني نفسها وتؤمل كثيرًا وترجو الفوز والظفر بحصاد وفير، فإذا بها لا تجد شيئًا فيعتريها الشعور بالحسرة والألم النفسي، يقول تعالى:

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) الكهف: 42.

(كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا)

في هذا المثال تتجسد ثلاث صور، الأولى: صورة النبات المخضر الجميل. والثانية: صورة النبات الذابل المصفر. الصورة الثالثة: صورة النبات الجاف المحطم. والصور الثلاث تمثل حالة النفس الإنسانية المسرورة بالشباب والمزهوة بالفتوة والمفتونة بزخرف الحياة وزينتها ..، وجميعها إلى زوال ولا تلبث أن تختفي وتزول بنهاية الحياة والموت، ولكن فرح النفس وسرورها وسعادتها الحقة يكون بتزكية النفس وإعدادها لما بعد الموت، لتحظى بما وعدها الله، تعالى، به، وما أعده لها من جنات ونهر، يقوا تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) القمر: 54-55.

ما ضربت به الأمثال من آي القرآن العظيم

اعلم أن الله تعالى عظم شأن القرآن، وفصل بيانه بالنظم العجيب والتأليف الرصيف على سائر الكلام، وإن وافقه في مبانيه، ومعانيه ثم أودعه من صنوف الحكم، وفنون الآداب والعذر، وجوامع الأحكام والسير، وطرائف الأمثال والعبر، ما لا يقف على كنهه ذوو القرائح الصافية، ولا في بعد فوائده أولو المعارف الوافية، وإن تلاحقت آلاتهم، وتوافقت أسباب التفهم والافهام فيهم...[1]

ومما ورد ذكره، من أمثال وهي كثيرة، في آي الذكر الحكيم: قوله تعالى:

- (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون).
- (الآن حصحص الحق. قضي الأمر الذي فيه تستفتيان).
- (أليس الصبح بقريب).
- (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنه).
- (ليس لها من دون الله كاشفة).
- (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم).
- (وحيل بينهم وبين ما يشتهون، لكل نبأ مستقر).
- (قل كل يعمل على شاكلته).
- (وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً).
- (وإن تصبهم سيئة يفرحوا بها).
- (كل نفس بما كسبت رهينة).
- (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة).
- (وما على الرسول إلا البلاغ).
- (كم من فئة قليله غلبت فئة كثيرة بإذن الله).
- (ما على المحسنين من سبيل تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى).

1/ أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي: الأزمنة والأمكنة، ص: 1. المصدر موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول (www.poetry.com).

- (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان).
- (ولا ينبئك مثل خبير ولوعلم الله فيهم خيراً لأسمعهم، كل حزب بما لديهم فرحون. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها).
- (لا يستوي الخبيث والطيب).
- (ففررت منكم لما خفتكم).
- (وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض. يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون).
- (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم، بل الله يزكي من يشاء).
- (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدوا لكم تسوءكم).
- (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين).
- (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون).
- (اعلموا أن الله شديد العقاب).
- (وأن الله غفور رحيم).
- (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون).
- (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر).
- (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون).
- (يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين).
- (فبئس القرين).
- (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين).
- (لا يجليها لوقتها إلا هو.)
- (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى كل يوم هو في شأن فبأي حديث بعده يؤمنون).
- (وما ربك بغافل عما تعملون).
- (واهجرهم هجراً جميلاً).
- (من عمل صالحاً فلنفسه).
- (ومن أساء فعليها).
- (إن هي إلا فتنتك).

- (فاعتبروا يا أولي الأبصار).
- (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم).
- (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت).
- (ولتعلمن نبأه بعد حين).
- وكان بين ذلك قواماً).
- (لمثل هذا فليعمل العاملون).
- (كل من عليها فان).
- (كل نفس ذائقة الموت).
- (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون).

كما ربطت العرب بين العديد من الأمثال التي ورد ذكرها في آي القرآن العظيم، وبين كثير من أنواع النشاط والسلوك الإنساني التفاعلي والاجتماعي، نحو:

- (ظَهَرَ الفَسَادُ في البَرِّ والبَحْرِ). إذا رأوا فساداً وهَرَجاً[1].

- (فَخَرَجَ على قَوْمِهِ في زِينَتِهِ). لمن يُظهر بزيِّه مُلكَه.

- (وَحِيلَ بَيْنَهُم وبينَ ما يَشْتَهُون). فيمن يُؤيَس مما يريد.

- (إنَّكم ماكثون). فيمن يُراد به المكث.

- (وَرَدَّ اللهُ الذينَ كَفَروا بِغَيْظِهِمْ لم يَنالوا خَيْراً). فيمن مُنع من مُراده.

- (وكفى اللهُ المؤمنينَ القِتَالَ). في سُهولةِ مطلب الشيء.

- (يا ليتني كنتُ مَعَهم فأفوزَ فوزاً عَظيماً). في المُتَلَهِّفِ على فَائتٍ.

- (سأُريكمُ دارَ الفَاسِقين). في منزلِ الخليع الفاسق.

- (رَبَّنا أخْرِجنا منها فإنْ عُدنا فإنّا ظالمون). في البلدةِ والمنزلِ يُتَبَرَّمُ به.

1/ محمد بن العباس الخوارزمي: الأمثال المولدة، ص: 159. المصدر موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول (www.poetry.com).

- (ولا يَحيقُ المكرُ السَّيِّءُ إلاّ بأهله). في المكّارِ الكَنُودِ.

- (إنَّكَ لا تُسمِعُ المَوْتَى). فيمن يُؤتى من عَمى قلبٍ.

- (ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى). في أخذِ البريء بالسَّقيم.

- (هلْ جَزاءُ الإحسانِ إلاّ الإحْسَانُ). في شُكرِ الجميل.

- (لا تَسْألوا عنْ أشْياءَ إنْ تُبْدَ لكمْ تَسُؤْكُمْ). في الباحثِ عَمَّا طيُّه خيرٌ له من نشرهِ.

- (لا يُكلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها). في قبول العُذر.

- (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه). في مُناقشةِ الحسابِ.

- (فَبُهِتَ الذي كَفَرَ). في قطع الخصْم.

- (كم من فئةٍ قليلةٍ غَلَبتْ فئةً كثيرةً). في التقاء الزحفيْنِ ومَدِّ حَبْلِ الرَّجاء.

- (مُذَبْذَبينَ بَيْنَ ذلك لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاء). في المرتبكِ بين الشكِّ واليقين.

- (فلكُمْ رؤوسُ أموالِكُمْ). في الرِّضا رأساً برأسٍ.

- (عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ). في التوْبَةِ واستئنافِ الخير.

- (لمثلِ هذا فَلْيَعْملِ العَامِلون). في استحسانِ عاقبته.

- (سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أمْ كنتَ من الكاذِبين). في الامتراءِ بكلام مُتكلِّم.

- (وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً). في الحَرَم الممنوع.

- (وإنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُريدُ). في التعرّض لما يُرادُ بك.

- (لن يُصيبَنا إلا ما كتَبَ اللهُ لنا). في حُسْن التكتّم مع الإقدام.

- (قُضِيَ الأمرُ الذي فيهِ تَسْتَفْتِيان). في فَصل الأمرِ.

- (ما على الرّسولِ إلا البلاغ). في بَسْط عذرِ الرسول.

- (عَلَيْكُم أَنْفُسَكُم). في لزوم ما يَعنيك.

وأمثال القرآن العظيم على ضربين، ضرب ظاهر مصرح به، وضرب كامن لا ذكر للمثل فيه[1].

ـ النموذج الأول:

قوله تعالى في شأن المنافقين:

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاّ يُبْصِرُونَ * صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيّبٍ مّنَ السّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِيَ آذَانِهِم مّنَ الصّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلّمَا أَضَآءَ لَهُمْ مّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَآءَ اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ إِنّ اللّهَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) البقروة: 17-20.

وقوله تعالى في شأن الذي ينفق أمواله ابتغاء مرضاة الله والذي يُنفقها رياءً:

(يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنّ وَالأذَىَ كَالّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ النّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَ ابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاّ يَقْدِرُونَ عَلَىَ شَيْءٍ مّمّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَ ابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لّمْ يُصِبْهَا وَ ابِلٌ فَطَلّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* أَيَوَدّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنّةٌ مّن نّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلّ الثّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرّيّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلّكُمْ تَتَفَكّرُونَ) البقر: 264-266.

وقوله تعالى في تمثيل الحق والباطل:

1/ أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ص: 237-243، المصدر موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول.

(أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ). الرعد: 17.

وقوله تعالى في تمثيل لحكمة وضدها:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ) إبراهيم: 24-26.

وقوله جل شأنه في حال الكفار وما يعبدون من دون الله:

(ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) الحج: 73.

وقوله تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ) العنكبوت: 41.

وقوله تعالى في أن عمل الكافر يذهب هباء تذروه الرياح:

(مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ) إبراهيم: 18.

وقوله تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ) النور: 39-40.

وقوله تعالى في أن الدنيا ظل زائل وخيال باطل:

(وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرّياحُ) الكهف: 45.

وقوله تعالى:

(اعْلَمُواْ أَنّمَا الْحَيَاةُ الدّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأمْوَالِ وَالأوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفّارَ نَبَاتُهُ ثُمّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمّ يَكُونُ حُطَاماً) الخديد: 20.

ـ النموذج الثاني:

كذلك توجد بين ثنايا آي القرآن العظيم، جملة من الأمثال المضمرة والتي تضمنتها العديد من الآيات، وهي بمثابة الآداب البارعة والحكم الباهرة، كقوله تعالى:

-(لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ كَاشِفَةٌ).

-(لَن تَنَالُواْ الْبِرّ حَتّىَ تُنْفِقُواْ مِمّا تُحِبّونَ).

-(الآنَ حَصْحَصَ الْحَقّ).

-(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ).

-(ذَلِكَ بِمَا قَدّمَتْ يَدَاكَ).

-(قُضِيَ الأمْرُ الّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ).

-(أَلَيْسَ الصّبْحُ بِقَرِيبٍ).

-(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ).

-(وَقَلِيلٌ مّنْ عِبَادِيَ الشّكُورُ).

-(وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السّيّءُ إِلاّ بِأَهْلِهِ).

-(قُلْ كُلّ يَعْمَلُ عَلَىَ شَاكِلَتِهِ).

-(عَسَىَ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىَ أَن تُحِبّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرّ لّكُمْ).

-(كُلّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ).

-(لّكُلّ نَبَإٍ مّسْتَقَرّ).

-(هَلْ جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلاّ الإِحْسَانُ).

-(كَم مّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٍ كَثِيرَةً).

-(آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ).

-(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتّىَ).

-(وَلاَ يُنَبّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ).

-(كُلّ حِزْبِ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ).

-(وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأسْمَعَهُمْ).

-(مَا عَلَى الرّسُولِ إِلاّ الْبَلاَغُ).

-(مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ).

-(لاَ يُكَلّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَهَا).

-(لاّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطّيّبُ).

-(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ).

-(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ).

-(فَاعْتَبِرُواْ يَأُوْلِي الأبْصَارِ).

وقد عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام، وتدخل في جل أساليب القول؛ فعملت على سبك ألفاظها؛ ليخف استعمالها، ويسهل تداولها؛ فهي من أجل الكلام وأنبله، وأشرفه وأفضله؛ لقلة ألفاظها، وكثرة معانيها، ويسير مئونتها على المتكلم، مع كبير

عنايتها، وجسيم عائدتها. ومن عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب، ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب؛ والحفظ موكل بما راع من اللفظ، وندر من المعنى. والأمثال أيضاً نوع من العلم منفرد بنفسه، لا يقدر على التصرف فيه إلا من اجتهد في طلبه حتى أحكمه، وبالغ في التماسه حتى أتقنه[1]. من أجل ذلك جاءت الأمثال، بشكل عام والعربية بشكل خاص، محكمة الصياغ للحد الذي أوجد بينها وبين العديد من الأمثال التي ذكرت في آي القرآن العظيم تقاربًا وتطابقًا في المعاني[2]:

- القتل أنفى للقتل (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ).
- إن عادت العقرب عدنا لها (وَإِنْ عُدتّمْ عُدْنَا) (وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ).
- إن غداً لناظره قريب (أَلَيْسَ الصّبْحُ بِقَرِيبٍ).
- قد وضح الأمر لذي عينين (الآنَ حَصْحَصَ الْحَقّ).
- أعط أخاك تمرة فإن أبى فجمرة (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرّحْمَنِ نُقَيّضْ لَهُ شَيْطَاناً).
- سبق السيف العذل (قُضِيَ الأمْرُ الّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ).
- قد حيل بي العير والنزوان (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ).
- عادت غيث على ما أفسد (ثُمّ بَدّلْنَا مَكَانَ السّيّئَةِ الْحَسَنَةَ).
- لكل مقام مقال (لّكُلّ نَبَإٍ مّسْتَقَرّ).
- مصائب قوم عند قوم فوائد (تُصِبْكُمْ سَيّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا).
- من حفر لأخيه بئراً وقع فيها (وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السّيّىءُ إِلاّ بِأَهْلِهِ).
- كل البقل لا تسأل عن المبقلة (لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ).
- المأمول خير من المأكول (وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لّكَ مِنَ الأُولَىَ).
- لو كان في اليوم خير ما سلم على الصياد (وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأسْمَعَهُمْ).
- الكلب لا يصيد كارهاً (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدّينِ).
- كل شاة ستناط برجليها (كُلّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ).
- عند الخنازير تنفق العذرة (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ).

1/ / أبو هلا العسكري: جمهرة الأمثال: ص:1-2، المصدر موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول.
2/ عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: المدهش، ص: 5، المصدر موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول.

- ليس المخبر كالمعاين «ولكن ليطمئن قلبي».
- ما تزرع تحصد «من يعمل سوءاً يُجْزَ به».
- للحيطان آذان «وفيكم سمَّاعون لهم».
- الحمية رأس «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا».
- احذر شر من أحسنت إليه «وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسولُه من فضله».
- من جهل شيئاً عاداه «بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم».
- خير الأمور أوساطها «ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط».
- من أعان ظالماً سلطه الله عليه «كتب عليه أنه من تولاه فأنَّه يضله».
- «لئن شكرتم لأزيدنكم» إبراهيم: 7.

الأسلوب القرآني

لقد اختص القرآن العظيم بأسلوب رفيع وعال المستوى، بل ويعد في غاية الروعة والجمال، في مضمار ضرب الأمثال ومطابقتها للواقع والواقعة مسار المثل، فقد سعت آيات القرآن العظيم إلى تقديم نموذج عالي الدقة في السرد والتشبيه الذي يستهدف كبد الحقيقة وليس سواها، من خلال استجلاء صورة حسية للموقف المراد تصويره، وتقديم البراهين والأدلة عليه، بحيث يقدو حقيقة ملموسة باستخدام بلاغة التشبيه والتمثيل، ومما يلاحظ، في آي القرآن العظيم، أنه قد اهتم كثيرًا بطرح العديد من النماذج التمثيلية التي بثها بكثرة في آياته وسوره:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

ولنتأمل قوله تعالى: (فما فوقها)، فنجد فيه قولان أحدهما فما دونها في الصغر والحقارة كما إذا وصف رجل باللؤم والشح فيقول السامع نعم وهو فوق ذلك يعني فيما وصفت وهذا قول الكسائي وابي عبيد قاله الرازي واكثر المحققين وفي الحديث {لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى كافرا منها شربة ماء}، والثاني (فما فوقها) لما هو أكبر منها لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة وهذا قول قتادة بن دعامة واختيار بن جرير فإنه يؤيده ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال {ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة} فأخبر أنه لا يستصغر شيئا يضرب به مثلا ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة كما لا يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)[2]، وقال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت

1/ البقرة:261.
2/ الحج:73.

العنكبوت لو كانوا يعلمون)[1]، وقال تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)[2]، وقال تعالى (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء) الآية ثم قال (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل)[3] الآية، كما قال (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم)[4] الآية، وقال (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) الآية وقال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وفي القرآن أمثال كثيرة قال بعض السلف اذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله قال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون)[5]، وقال مجاهد في قوله تعالى (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها وقال قتادة (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) أي يعلمون أنه كلام الرحمن وأنه من عند الله وروي عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك وقال أبو العالية (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) يعني هذا المثل (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا)[6]، كما قال في سورة المدثر (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو)[7]، وكذلك قال ها هنا (يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين) قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن بن عباس

1/ العنكبوت:41.
2/ إبراهيم: 24.
3/ النحل: 76.
4/ الروم: 28.
5/ الحشر:21.
6/ البقرة: 26.
7/ المدثر: 31.

وعن مرة عن بن مسعود وعن ناس من الصحابة يضل به كثيرا يعني به المنافقين ويهدي به كثيرا يعني به المؤمنين فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقا يقينا من المثل الذي ضربه الله بما ضرب لهم وأنه لما ضرب له موافق فذلك إضلال الله إياهم به ويهدي به يعني المثل كثيرا من أهل الإيمان والتصديق فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيمانا إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد علموه حقا يقينا أنه موافق لما ضربه الله له مثلا وإقرارهم به وذلك هداية من الله لهم به (وما يضل به إلا الفاسقين) قال هم المنافقون وقال أبو العالية (وما يضل به إلا الفاسقين) قال هم أهل النفاق وكذا قال الربيع بن أنس وقال بن جريج عن مجاهد عن بن عباس (وما يضل به إلا الفاسقين) قال يقول يعرفه الكافرون فيكفرون به وقال قتادة (وما يضل به إلا الفاسقين) فسقوا فأضلهم الله على فسقهم. وقال بن أبي حاتم حدثنا أبي عن إسحاق بن سليمان عن أبي سنان عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد عن سعد (يضل به كثيرا) يعني الخوارج وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد قال سألت أبي فقلت قوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) إلى آخر الآية فقال هم الحرورية وهذا الإسناد وإن صح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فهو تفسير على المعنى لا أن الآية أريد منها التنصيص على الخوارج الذين خرجوا على علي بالنهروان فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل لأنهم سموا خوارج لخروجهم عن طاعة الإمام والقيام بشرائع الإسلام والفاسق في اللغة هو الخارج عن الطاعة أيضا وتقول العرب فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرتها ولهذا يقال للفأرة فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد وثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال {خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور} فالفاسق يشمل الكافر والعاصي ولكن فسق الكافر أشد وأفحش والمراد به من الآية الفاسق الكافر والله أعلم بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين كما قال تعالى في سورة الرعد (أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون

سوء الحساب)[1] الآيات إلى أن قال (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون)[2]. وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين ناريا ومائيا وهما قوله (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله)[3] الآية، ثم قال (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق)[4] الآية، وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين أحدهما قوله (والذين كفروا أعمالهم كسراب)[5] الآية والسراب إنما يكون في شدة الحر ولهذا جاء في الصحيحين فيقال لليهود يوم القيامة فما تريدون فيقولون أي ربنا عطشنا فاسقنا فيقال ألا تردون فيردون النار فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضا ثم قال تعالى في المثل الآخر (أو كظلمات في بحر لجي) الآية، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: {إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به} فهذا مثل مائي، وقال في الحديث الآخر ....، حدثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال {مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها قال فذلكم مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبوني فتقتحمون فيها}... فهذا مثل ناري[6].

1/الرعد: 19-21

2/ البقرة:25.

3/ البقرة: 17.

4/ البقرة: 19.

5/ النور: 39.

6/ تفسير ابن كثير ج2/ص509-510.

سورة البقرة الآية:16 ـ21:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) البقرة:16-20.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

قال السدي في تفسيره، ... (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) قال، أخذوا الضلالة وتركوا الهدى وقال بن إسحاق ... (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أي الكفر بالإيمان، وقال مجاهد آمنوا ثم كفروا، وقال قتادة استحبوا الضلالة على الهدى، وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) وحاصل قول المفسرين فيما تقدم أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال واعتاضوا عن الهدى بالضلالة وهو معنى قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أي بذلوا الهدى ثمنا للضلالة، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر كما قال تعالى فيهم (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم)[2] أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى كما يكون حال فريق آخر منهم فإنهم أنواع وأقسام ولهذا قال تعالى (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة وما كانوا مهتدين أي راشدين في صنيعهم ذلك، وقال بن جرير... (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ومن الجماعة إلى الفرقة ومن الأمن إلى الخوف ومن السنة إلى البدعة وهكذا رواه بن أبي حاتم من حديث يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة بمثله سواء.

1/ . تفسير ابن كثير ج1/ص53:

2/ المنافقون:3

يقال مثل ... ومثيل أيضا والجمع أمثال قال الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)[1] وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم، بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد نارًا فلما أضاءت ماحوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي وهو مع هذا فهو أصم لا يسمع أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياء لما أبصر فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى واستحبابهم الغي على الرشد وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع والله أعلم، وقد حكى هذا الذي قلناه الرازي في تفسيره عن السدي ثم قال والتشبيه ها هنا في غاية الصحة لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولا نورًا ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك فوقعوا في حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين، وزعم بن جرير أن المضروب لهم المثل ها هنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات واحتج بقوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)[2] والصواب أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك ثم سلبوه وطبع على قلوبهم ولم يستحضر بن جرير هذه الآية ها هنا وهي قوله تعالى (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون)[3] فلهذا وجه هذا المثل بأنهم استضاءوا بما أظهروه من كلمة الإيمان أي في الدنيا ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة قال وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال (رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت)[4]، أي كدوران الذي يغشى عليه من الموت، وقال تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة)[5]، وقال تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا)[6]، وقال بعضهم تقدير الكلام مثل قصتهم كقصة الذين استوقدوا نارًا، وقال بعضهم المستوقد واحد لجماعة معه، وقال آخرون الذي ها هنا بمعنى الذين كما قال الشاعر:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

1/ العنكبوت:43.
2/ البقرة:8.
3/ المنافقون:3.
4/ الأحزاب: 19.
5/ لقمان:28.
6/ الجمعة:5.

قلت وقد التفت، في أثناء المثل من الواحد، إلى الجمع في قوله تعالى (فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون) وهذا أفصح في الكلام وأبلغ في النظام وقوله تعالى (ذهب الله بنورهم) أي ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان (وتركهم في ظلمات) وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق (لا يبصرون) لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها وهم مع ذلك (صم) لا يسمعون خيرًا (بكم) لا يتكلمون بما ينفعهم (عمي) في ضلالة وعماية البصيرة كما قال تعالى (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)[1]، فلهذا لا يرجعون إلى ماكانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه قال السدي في تفسيره ...، في قوله تعالى (فلما أضاءت ما حوله) زعم أن ناسا دخلوا في الإسلام مقدم نبي الله صلى الله عليه وسلم المدينة ثم إنهم نافقوا وكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة فأوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله من قذى أو أذى فأبصره حتى عرف ما يتقي منه فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فأقبل لا يدري ما يتقي من أذى فذلك المنافق كان في ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحلال والحرام والخير والشر فبينما هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر، وقال العوفي عن بن عباس، في هذه الآية، قال أما النور فهو إيمانهم الذي كانوا يتكلمون به وأما الظلمة فهي ضلالتهم وكفرهم الذي كانوا يتكلمون به وهم قوم كانوا على هدى ثم نزع منهم فعتوا بعد ذلك وقال مجاهد (فلما أضاءت ما حوله) أما إضاءة النار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى وقال عطاء الخرساني في قوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا)، قال هذا مثل المنافق يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ثم يدركه عمى القلب، وقال بن أبي حاتم وروى عن عكرمة والحسن والسدي والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخرساني، ...، قال هذا مثل المنافق يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ثم يدركه عمى القلب، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا) إلى آخر الآية قال هذه صفة المنافقين كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا نارًا ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعه كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم في ظلمات لا يبصرون، وأما قول بن جرير فيشبه مارواه علي بن أبي طلحة عن بن عباس في قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا) قال هذا مثل ضربه الله

1/ الحج:46.

للمنافقين أنهم كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءه، وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية (مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا) فإنما ضوء النار ما أوقدتها فإذا خمدت ذهب نورها وكذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الاخلاص بلا إله إلا الله أضاء له فإذا شك وقع في الظلمة وقال الضحاك (ذهب الله بنورهم) أما نورهم فهو إيمانهم الذي تكلموا به، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله) فهي لا إله إلا الله أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وآمنوا في الدنيا وأنكحوا النساء وحقنوا دماءهم حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، وقال سعيد عن قتادة، في هذه الآية، إن المعنى أن المنافق تكلم بلا إله إلا الله فأضاءت له في الدنيا فناكح بها المسلمين وغازاهم بها ووارثهم بها وحقن بها دمه وماله فلما كان عند الموت سلبها المنافق لأنه لم يكن لها أصل في قلبه ولا حقيقة في عمله (وتركهم في ظلمات لا يبصرون)، قال علي بن أبي طلحة عن بن عباس (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) يقول في عذاب إذا ماتوا وقال محمد بن إسحاق ...، (وتركهم في ظلمات) أي يبصرون الحق ويقولون به حتى إذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفئوه بكفرهم ونفاقهم فيه فتركهم في ظلمات الكفر فهم لا يبصرون هدى ولا يستقيمون على حق وقال السدي، في تفسيره بسنده، وتركهم في ظلمات فكانت الظلمة نفاقهم، وقال الحسن البصري (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) فذلك حين يموت المنافق فيظلم عليه عمله عمل السوء فلا يجد له عملا من خير عمل به يصدق به قول لا إله إلا الله (صم بكم عمي)، قال السدي بسنده (صم بكم عمي) فهم خرس عمي، وقال علي بن أبي طلحة عن بن عباس (صم بكم عمي) يقول لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه وكذا قال أبو العالية وقتادة بن دعامة، فهم لا يرجعون، قال بن عباس، أي لا يرجعون إلى هدى وكذا قال الربيع بن أنس وقال السدي بسنده (صم بكم عمي) فهم لا يرجعون إلى الإسلام، وقال قتادة فهم لا يرجعون أي لا يتوبون ولا هم يذكرون.

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم (كصيب) والصيب المطر قاله بن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصري وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخرساني والسدي والربيع بن أنس وقال الضحاك، هو السحاب والأشهر هو المطر نزل من السماء في حال ظلمات وهي الشكوك والكفر والنفاق (ورعد) وهو ما يزعج القلوب من الخوف فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع كما قال، تعالى، (يحسبون كل صيحة عليهم)[1]، وقال (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون)[2]، والبرق هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان ولهذا قال (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين) أي ولا يجدي عنهم حذرهم شيئا لأن الله محيط بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته كما قال (هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط بهم)[3]، ثم قال (يكاد البرق يخطف أبصارهم) أي لشدته وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للايمان، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (يكاد البرق يخطف أبصارهم) يقول يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين وقال ابن إسحاق، (يكاد البرق يخطف أبصارهم) أي لشدة ضوء الحق (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا) أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، (كلما أضاء لهم مشوا فيه) يقول كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه واذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به)[4]، وقال محمد بن إسحاق ... (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا) أي يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي متحيرين وهكذا قال أبو العالية والحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس والسدي

1/ المنافقون: 4.
2/ التوبة:57.
3/ البروج:17.
4/ الحج:11.

بسنده عن الصحابة وهو أصح وأظهر والله أعلم، وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى ومنهم من يمشي على الصراط تارة ويقف أخرى ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخلص من المنافقين الذين قال، تعالى، فيهم (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا)[1]، وقال في حق المؤمنين (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار)[2]، الآية وقال تعالى (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير)[3]، نور المؤمنين، ذكر الحديث الوارد في ذلك، قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات) الآية، ذكر لنا أن نبي الله، صلى الله عليه وسلم، كان يقول من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أو بين صنعاء ودون ذلك حتى إن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه، رواه ابن جرير ورواه بن أبي حاتم من حديث عمران بن داود القطان عن قتادة بنحوه، وهذا كما قال، المنهال بن عمرو ...، قال يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم وأدناهم نورًا على إبهامه يطفأ مرة ويقد مرة وهكذا، رواه بن جرير ...، وقال بن أبي حاتم ...، (نورهم يسعى بين أيديهم) قال على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نورًا من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ أخرى، وقال بن أبي حاتم أيضا ...، ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نورًا يوم القيامة فأما المنافق فيطفأ نوره فالمؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين فهم يقولون (ربنا أتمم لنا نورنا) وقال الضحاك بن مزاحم، يعطى كل من كان يظهر الإيمان في الدنيا يوم القيامة نورًا فإذا انتهى إلى الصراط طفئ نور المنافقين فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا فقالوا، (ربنا أتمم لنا نورنا) فإذا تقرر هذا صار الناس أقساما مؤمنون خلص وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة وكفار خلص، وهم الموصوفون بالآيتين بعدها ومنافقون وهم قسمان خلص وهم المضروب لهم المثل الناري ومنافقون يترددون تارة يظهر لهم لمع الإيمان وتارة

1/ الحديد:13.

2/ الحديد:12.

3/ التحريم:8.

يخبو، وهم أصحاب المثل المائي وهم أخف حالا من الذين قبلهم وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور بالمصباح في الزجاجة التي كأنها كوكب دري وهي قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله، ثم ضرب مثل العباد من الكفار الذين يعتقدون أنهم على شيء وليسوا على شيء وهم أصحاب الجهل المركب في قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) ، الآية ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط وهم الذين قال تعالى فيهم، (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) ، فقسم الكفار، ها هنا، إلى قسمين داعية ومقلد كما ذكرهما في أول سورة الحج (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد)[1]، وقال (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)[2]، وقد قسم الله المؤمنين في أول الواقعة وفي آخرها وفي سورة الإنسان إلى قسمين سابقون وهم المقربون وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فنلخص، من مجموع هذه الآيات الكريمات أن المؤمنين صنفان مقربون وأبرار وأن الكافرين صنفان دعاة ومقلدون وأن المنافقين أيضا صنفان منافق خالص ومنافق فيه شعبة من نفاق كما جاء في الصحيحين، عن عبد الله بن عمرو عن النبي، صلى الله عليه وسلم، {ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصًا ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها من إذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان}، استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان وشعبة من نفاق إما عملي لهذا الحديث أو إعتقادي كما دلت عليه الآية كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء كما تقدم وكما سيأتي ان شاء الله قال الإمام أحمد ...، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس وقلب مصفح فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره وأما القلب الأغلف فقلب الكافر وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه

1/ الحج:3.
2/ الحج: 8.

إيمان ونفاق ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه[1]. وقوله تعالى (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير) قال محمد بن إسحاق ....، (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) قال لما تركوا من الحق بعد معرفته (إن الله على كل شيء قدير) قال بن عباس، أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير، وقال بن جرير إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير ومعنى قدير قادر كما معنى عليم عالم وذهب، ابن جرير، ومن تبعه من كثير من المفسرين، إلى أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون (أو) في قوله تعالى (أو كصيب من السماء) بمعنى الواو كقوله تعالى (ولا تطع منهم آثما أو كفورا)[2]، أو تكون للتخيير أي أضرب لهم مثلا بهذا وإن شئت بهذا، قال القرطبي، أو للتساوي مثل جالس الحسن أو بن سيرين، على ماوجهه الزمخشري أن كلا منهما مساو للآخر في إباحة الجلوس إليه ويكون معناه على قوله سواء ضربت لهم مثلا بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم. قلت، وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة ومنهم ومنهم ومنهم يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم والله أعلم كما ضرب المثلين في سورة النور لصنفي الكفار الدعاة والمقلدين في قوله تعالى، (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) إلى أن قال (أو كظلمات في بحر لجي) ، الآية فالأول للدعاة الذين هم في جهل مركب والثاني لذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلدين والله أعلم بالصواب[3].

ـ توضيح:

إن القارئ للآيات (16-20) من سورة البقرة، يمكنه أن يستشف تلك الصورة الحسية التي رسمتها لنا الآيات وقدمتها لنا لنشهد ونلمس ما فيها من شعور نفسي سئ للجماعة الموصوفة، ويتبين لنا، ذلك، من خلال تتبعنا للتصوير الفني للمشهد وما اشتمل عليه من

1/ أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني: مسند أحمد بن حنبل ج3/ص17، مؤسسة قرطبة (مصر).
2/ الإنسان:24.
3/ إسماعيل ابن عمر بن كثير أبو الفداء: تفسير ابن كثير ج1/ص53-58، دار الفكر (بيروت).

شعور محبط ألم بتاجر قد لحقت به خسارة فادحة حينما فشل في تحقيق ربح من تجارته التي كان يمني نفسه بربح وفير منها، وليت الشعور بالألم قد توقف عند الخسارة المادية، بل تكالبت عليه المصائب وتوالت المصيبة تلو الأخرى، وهو، مع كل ذلك الكم من المصائب، لا يملك سوى الاستسلام والخضوع لسلطان قادر مقتدر. فأي شعور وأي إحساس يسيطر على أولئك النفر في ذلك الموقف المخزي!!؟؟؟، لا شك أنه شعور نفسي شديد القسوة والألم، وقانا الله شره وحمانا من مثله، إنه شعور لا يستشعره إلا من عاش لحظاته لحظة بلحظة، ولكي نقترب من ذلك الاحساس علينا أن نتأمل الصورة الحسية المأخوذة من الآيات ونتأملها بعين البصيرة لا البصر حتى نتمكن من تصور الموقف بشكل هو أقرب لذلك الموقف الذي جاء في ثنايا الآيات وطياتها، علينا أن نقف أمام هذه الصور الحسية، والتي من خلالها سندرك ونعي حجم الآلام النفسية التي أمكنت قبضتها وأحكمت سيطرتها على أولئك الموصوفين:

1- تاجر آب بالخسران بعد أن كان يمني نفسه بالأرباح الطائلة.
2- من كان قادرًا على الكلام فأصبح عاجزًا عنه بالبكم.
3- من فقد قدرته على السمع بعد أن كان سميعًا فصار أصمًا.
4- من صار أعمى بعد أن كان بصيرًا.
5- من يصارع الأهوال ويعيش في خوف وقلق من الموت في كل حين.
6- من يعيش حالة من صراع نفسي دون أن يجد من يسانده أو يقف بجانبه.

إنها صور واقعية لا تكاد تخفى على العين المستبصرة والبصيرة النفذة، تراها رأي العين في رائعة النهار، وصورة ملموسة ومحسوسة لكل من ألقى السمع وهو شهيد.

سورة البقرة الأية:26

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) البقرة:26.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

... وقال مجاهد في قوله تعالى: (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها، وقال قتادة: (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم)، أي يعلمون أنه كلام الرحمن وأنه من عند الله وروي عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك وقال أبو العالية: (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم)، يعني هذا المثل، (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا)، كما قال: في سورة المدثر (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو) ، وكذلك قال: ها هنا (يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين)، قال السدي في تفسيره: ...، (يضل به كثيرا) يعني به المنافقين (ويهدي به كثيرا) يعني به المؤمنين فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقا يقينا من المثل الذي ضربه الله بما ضرب لهم وأنه لما ضرب له موافق فذلك إضلال الله إياهم به ويهدي به يعني المثل كثيرا من أهل الإيمان والتصديق فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيمانا إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد علموه حقا يقينا أنه موافق لما ضربه الله له مثلا وإقرارهم به وذلك هداية من الله لهم به (وما يضل به إلا الفاسقين)، قال هم المنافقون، وقال أبو العالية، (وما يضل به إلا الفاسقين) قال هم أهل النفاق، وكذا قال الربيع بن أنس وقال بن جريج عن مجاهد عن بن عباس (وما يضل به إلا الفاسقين)،

1/ تفسير ابن كثير ج1/ص66.

قال يقول يعرفه الكافرون فيكفرون به، وقال قتادة (وما يضل به إلا الفاسقين) فسقوا فأضلهم الله على فسقهم.

ـ تفسير الطبري[1]:

القول في تأويل قوله تعالى: (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين) قال أبو جعفر اختلف أهل التأويل في المعنى الذي أنزل الله جل ثناؤه فيه هذه الآية وفي تأويلها، فقال بعضهم ...، وعن ناس من أصحاب النبي، لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعني قوله (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا وقوله أو كصيب من السماء) الآيات الثلاث قال المنافقون الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة) إلى قوله (أولئك هم الخاسرون)، وقال آخرون ...، عن الربيع بن أنس في قوله تعالى (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها)، قال هذا مثل ضربه الله للدنيا إن البعوضة تحيا ما جاعت فإذا سمنت ماتت وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن إذا امتلئوا من الدنيا ريا أخذهم الله عند ذلك، قال ثم تلا (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء)[2]، الآية، ...، عن الربيع بن أنس بنحوه إلا أنه قال فإذا خلى آجالهم وانقطعت مدتهم صاروا كالبعوضة تحيا ما جاعت وتموت إذا رويت فكذلك هؤلاء الذين ضرب الله لهم هذا المثل إذا امتلئوا من الدنيا ريا أخذهم الله فأهلكهم فذلك قوله (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون)[3]، وقال آخرون ...، عن قتادة قوله (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) أي إن الله لا يستحيي من الحق أن يذكر منه شيئا ما قل منه أو كثر، إن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة ما أراد الله من ذكر هذا فأنزل الله (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) وحدثنا الحسن بن يحيى ...، عن قتادة قال لما ذكر الله العنكبوت والذباب قال المشركون ما بال العنكبوت والذباب يذكران فأنزل الله إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما

1/ تفسير الطبري ج1/ص177-180:
2/ الأنعام:44.
3/ الأنعام: 44.

بعوضة فما فوقها وقد ذهب كل قائل ممن ذكرنا قوله في هذه الآية وفي المعنى الذي نزلت فيه مذهبا غير أن أولى ذلك بالصواب وأشبهه بالحق ما ذكرنا من قول بن مسعود وبن عباس وذلك أن الله جل ذكره أخبر عباده أنه لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها عقيب أمثال قد تقدمت في هذه السورة ضربها للمنافقين دون الأمثال التي ضربها في سائر السور غيرها فلأن يكون هذا القول أعني قوله (إن الله لا يستحيي) أن يضرب مثلا ما جوابا لنكير الكفار والمنافقين ما ضرب لهم من الأمثال في هذه السورة أحق وأولى من أن يكون ذلك جوابا لنكيرهم ما ضرب لهم من الأمثال في غيرها من السور فإن قال قائل إنما أوجب أن يكون ذلك جوابا لنكيرهم ما ضرب من الأمثال في سائر السور لأن الأمثال التي ضربها الله لهم ولآلهتهم في سائر السور أمثال موافقة المعنى لما أخبر عنه أنه لا يستحي أن يضربه مثلا إذ كان بعضها تمثيلا لآلهتهم بالعنكبوت وبعضها تشبيها لها في الضعف والمهانة بالذباب وليس ذكر شيء من ذلك بموجود في هذه السورة فيجوز أن يقال إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما فإن ذلك بخلاف ما ظن وذلك أن قول الله جل ثناؤه إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها إنما هو خبر منه جل ذكره أنه لا يستحيي أن يضرب في الحق من الأمثال صغيرها وكبيرها ابتلاء بذلك عباده واختبارا منه لهم ليميز به أهل الإيمان والتصديق به من أهل الضلال والكفر به إضلالا منه به لقوم وهداية منه به لآخرين كما حدثني محمد بن عمرو ...، عن مجاهد في قوله (مثلا ما بعوضة) يعني الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها ويضل بها الفاسقين، يقول يعرفه المؤمنون فيؤمنون به ويعرفه الفاسقون فيكفرون به، وحدثني المثنى ...، عن مجاهد بمثله وحدثني القاسم ...، عن بن جريج عن مجاهد مثله. قال أبو جعفر لا أنه جل ذكره قصد الخبر عن عين البعوضة أنه لا يستحيي من ضرب المثل بها ولكن البعوضة لما كانت أضعف الخلق كما حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنا أبو سفيان عن معمر عن قتادة قال البعوضة أضعف ما خلق الله، وحدثنا القاسم قال حدثنا ...، عن بن جريج بنحوه، خصها الله بالذكر في القلة فأخبر أنه لا يستحيي أن يضرب أقل الأمثال في الحق وأحقرها وأعلاها إلى غير نهاية في الارتفاع جوابا منه جل ذكره لمن أنكر من منافقي خلقه ما ضرب لهم من المثل بموقد النار والصيب من السماء على ما نعتهما به من نعتهما، فإن قال لنا قائل وأين ذكر نكير المنافقين الأمثال التي وصفت الذي هذا الخبر جوابه فنعلم أن القول في ذلك ما قلت، قيل الدلالة على ذلك بينها جل ذكره في قوله فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما

الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا وأن القوم الذين ضرب لهم الأمثال في الآيتين المقدمتين اللتين مثل ما عليه المنافقون مقيمون فيهما بموقد النار وبالصيب من السماء على ما وصف من ذلك قبل قوله إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا قد أنكروا المثل وقالوا ماذا أراد الله بهذا مثلا فأوضح خطأ قيلهم ذلك وقبح لهم ما نطقوا به وأخبرهم بحكمهم في قيلهم ما قالوا منه وأنه ضلال وفسوق وأن الصواب والهدى ما قاله المؤمنون دون ما قالوه، وأما تأويل قوله إن الله لا يستحيي فإن بعض المنسوبين إلى المعرفة بلغة العرب كان يتأول معنى إن الله لا يستحيي إن الله لا يخشى أن يضرب مثلا ويستشهد على ذلك من قوله بقول الله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ويزعم أن معنى ذلك وتستحي الناس والله أحق أن تستحيه فيقول الاستحياء بمعنى الخشية والخشية بمعنى الاستحياء، وأما معنى قوله أن يضرب مثلا فهو أن يبين ويصف كما قال جل ثناؤه ضرب لكم مثلا من أنفسكم بمعنى وصف لكم وكما قال الكميت وذلك ضرب أخماس أريدت لأسداس عسى أن لا تكونا بمعنى وصف أخماس والمثل الشبه يقال هذا مثل هذا ومثله كما يقال شبهه وشبهه ومنه قول كعب بن زهير كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطيل يعني شبها، فمعنى قوله إذا (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا) إن الله لا يخشى أن يصف شبها لما شبه به وأما ما التي مع مثل فإنها بمعنى الذي لأن معنى الكلام إن الله لا يستحيي أن يضرب الذي هو بعوضة في الصغر والقلة فما فوقها مثلا، فإن قال لنا قائل فإن كان القول في ذلك كما قلت فما وجه نصب البعوضة وقد علمت أن تأويل الكلام على ما تأولت (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا) الذي هو بعوضة فالبعوضة على قولك في محل الرفع فأنى أتاها النصب قيل أتاها النصب من وجهين أحدهما أن ما لما كانت في محل نصب بقوله يضرب وكانت البعوضة لها صلة أعربت بتعريبها فألزمت إعرابها كما قال حسان بن ثابت وكفى بنا فضلا على من غيرنا حب النبي محمد إيانا فعربت غير بإعراب من فالعرب تفعل ذلك خاصة في من وما تعرب صلاتهما بإعرابهما لأنهما يكونان معرفة أحيانا ونكرة أحيانا، وأما الوجه الآخر فأن يكون معنى الكلام إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بين بعوضة إلى ما فوقها ثم حذف ذكر بين وإلى إذ كان في نصب البعوضة ودخول الفاء في ما الثانية دلالة عليهما كما قالت العرب مطرنا ما زبالة فالثعلبية وله عشرون ما ناقة فجملا وهي أحسن الناس ما قرنا فقدما يعنون ما بين قرنها إلى قدمها وكذلك يقولون في كل ما حسن فيه من الكلام دخول ما بين كذا إلى كذا ينصبون الأول والثاني ليدل النصب فيهما على المحذوف من الكلام، فكذلك ذلك في قوله (ما بعوضة

فما فوقها)، وقد زعم بعض أهل العربية أن ما التي مع المثل صلة في الكلام بمعنى التطول وأن معنى الكلام (إن الله لا يستحيي أن يضرب بعوضة مثلا فما فوقها)، فعلى هذا التأويل يجب أن تكون بعوضة منصوبة بيضرب وأن تكون ما الثانية التي في فما فوقها معطوفة على البعوضة لا على ما، وأما تأويل قوله (فما فوقها) فما هو أعظم منها عندي لما ذكرنا قبل من قول قتادة وبن جريج أن البعوضة أضعف خلق الله فإذا كانت أضعف خلق الله فهي نهاية في القلة والضعف وإذ كانت كذلك فلا شك أن ما فوق أضعف الأشياء لا يكون إلا أقوى منه فقد يجب أن يكون المعنى على ما قالاه فما فوقها في العظم والكبر إذ كانت البعوضة نهاية في الضعف والقلة، وقيل في تأويل قوله فما فوقها في الصغر والقلة كما يقال في الرجل يذكره الذاكر فيصفه باللؤم والشح فيقول السامع نعم وفوق ذاك يعني فوق الذي وصف في الشح واللؤم، وهذا قول خلاف تأويل أهل العلم الذين ترتضى معرفتهم بتأويل القرآن فقد تبين إذا بما وصفنا أن معنى الكلام إن الله لا يستحيي أن يصف شبها لما شبه به الذي هو ما بين بعوضة إلى ما فوق البعوضة، فأما تأويل الكلام لو رفعت البعوضة فغير جائز في ما إلا ما قلنا من أن تكون اسما لا صلة بمعنى التطول.

ـ تفسير السعدي[1]:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ).

يقول تعالى: (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما) أي أي مثل كان بعوضة فما فوقها لاشتمال الأمثال على الحكمة وإيضاح الحق والله لا يستحيي من الحق وكأن في هذا جوابا لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة واعترض على الله في ذلك فليس في ذلك محل اعتراض بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر ولهذا قال: (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) فيتفهمونها ويتفكرون فيها فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل ازداد بذلك علمهم وإيمانهم وإلا علموا أنها حق وما اشتملت عليه حق وإن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثا بل لحكمة بالغة ونعمة

1/ تفسير السعدي ج1/ص47.

سابغة، (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) فيعترضون ويتحيرون فيزدادون كفرا إلى كفرهم كما ازداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم، ولهذا قال: (يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا) فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية قال تعالى: (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون)[1]، فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة وضلالة وزيادة شر إلى شرهم ولقوم منحه ورحمة وزيادة خير إلى خيرهم فسبحان من فاوت بين عباده وانفرد بالهداية والإضلال ثم ذكر حكمته في إضلال من يضلهم وأن ذلك عدل منه تعالى فقال: (وما يضل به إلا الفاسقين) أي الخارجين عن طاعة الله المعاندين لرسل الله الذين صار الفسق وصفهم فلا يبغون به بدلا فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة والفسق نوعان نوع مخرج من الدين وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان كالمذكور في هذه الآية ونحوها ونوع غير مخرج عن الإيمان كما في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)[2].

ـ توضيح:

تصور لنا هذه الآية (البقرة26)، مشهدين، المشهد الأول فيه صورة لجماعة تمتعت بقدر عال من الوعي والادراك (Perception) التام للموقف فحصل لها توافق نفسي مع المثل المضروب فمنحها الله، تعالى، الطمأنينة والهدوء وابتعدت عن الحيرة والقلق، وبالتالي حصلت على شعور بالاستقرار والراحة النفسية، بينما ترسم الآية مشهدًا آخر مختلفًا تمام الاختلاف عن المشهد الأول، وهو مشهد الفريق الذي أصابته الحيرة والبلبلة الذهنية وسيطر عليه الشعور بالقلق وهم في اضطراب متصل لا يدرون ما الذي يجري حولهم هل يميلوا إلى التصديق بما جاءهم من الآيات ويخضعوا لها دون جدل، أم يغلقوا دونها قلوبهم ويصمون

1/ التوبة:124.
2/ الحجرات:6

عنها آذانهم ويغمضون أعينهم عن الحق المبين؟!!!؟، فهم في حيرة وشك قاتل، وترتسم تلك الحيرة ويتبدى ذلك الشك في قوله تعالى:

(وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[1].

(وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)[2].

(وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[3].

والملاحظ، في الآية (إبراهيم:9)، أن أفواههم كفرت وأيقنت بالكفر، ولكن قلوبهم ونفوسهم تعاني وتكابد صراعًا داخليًا يجعلم في حيرة شك من أمره بدليل قوله، بعد ذلك:

(وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ).

أي أنهم لم يستطيعوا أن يحسموا موقفهم بشكل واضح، لا لبس فيه ولا غموض، ومن هنا تتكوكب وتتكأكأ الآلام النفسية المبرحة وأعراضها المؤذية.

1/ هود:62.
2/ هود:110.
3/ إبراهيم:9.

سورة البقرة الأية: 261

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) البقرة:261.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف فقال: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله)، قال سعيد بن جبير: يعني في طاعة الله، وقال مكحول: يعني به الانفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك، وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن بن عباس: الجهاد والحج يضعف الدرهم فيهما إلى سبع مئة ضعف، ولهذا قال تعالى: (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة)، وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبع مئة ضعف قال الإمام أحمد ...، عن عياض بن غطيف قال دخلنا على أبي عبيدة نعوده من شكوى أصابه بجنبه وامرأته تحيفة قاعدة عند رأسه قلنا: كيف بات أبو عبيدة قالت: والله لقد بات بأجر، قال أبو عبيدة: مابت بأجر، وكان مقبلا بوجهه على الحائط فأقبل على القوم بوجهه، وقال: ألا تسألوني عما قلت، قالوا: ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه، قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: {من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فسبعمائة ومن أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضا أو ماز أذى فالحسنة بعشر أمثالها والصوم جنة ما لم يخرقها ومن ابتلاه الله عز وجل ببلاء في جسده فهو له حطة} وقد روى النسائي ...، عن بن مسعود أن رجلا تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، {لتأتين يوم القيامة بسعمائة ناقة مخطومة}...، عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، {إن الله جعل حسنة بن آدم إلى عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلا الصوم والصوم لي وأنا أجزي به وللصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة يوم القيامة ولخلوف فم

1/ تفسير ابن كثير ج1/ص317.

الصائم أطيب عند الله من ريح المسك}، حديث آخر، قال أحمد ...، عن وكيع به حديث آخر قال أحمد 4345 حدثنا حسين بن علي عن زائدة عن الركين عن يسير بن عميلة عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنفق نفقة في سبيل الله تضاعف بسبعمائة ضعف، ...، أنبأنا محمد بن عمرو بن السرح ...، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الصلاة والصيام والذكر يضاعف على النفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف، ...، قال بن أبي حاتم ...، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أرسل بنفقة في سبيل وأقام في بيته فله بكل درهم سبع مئة درهم يوم القيامة ومن غزا في سبيل الله وأنفق في جهة ذلك فله بكل درهم سبع مئة ألف درهم ثم تلا هذه الآية والله يضاعف لمن يشاء، ...، قال بن مردويه ...، لما نزلت هذه الآية (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) قال النبي، صلى الله عليه وسلم، رب زد أمتي، قال فأنزل الله (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا)، قال: رب زد أمتي، قال فأنزل الله (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب).

ـ تفسير السعدي[1]:

... (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة) (والله يضاعف) (لمن يشاء) (والله واسع) (عليم) (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[2] هذا حث عظيم من الله لعباده على إنفاق أموالهم في سبيله وهو طريقه للوصول إليه فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة وفي الاستعداد للجهاد في سبيله وفي تجهز المجاهدين وتجهيزهم وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين ويلي ذلك الإنفاق على المحتاجين والفقراء والمساكين وقد يجتمع الأمران فيكون في النفقة دفع الحاجات والإعانة على الخير والطاعات فهذه النفقات مضاعفة هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك ولهذا قال والله يضاعف لمن يشاء وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان والإخلاص التام وفي ثمرات نفقته ونفعها فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة ومصالح متنوعة فكان الجزاء من جنس العمل ثم أيضا ذكر ثوابا آخر

1/ تفسير السعدي ج1/ص113.

2/ البقرة: 262.

للمنفقين أموالهم في سبيله نفقة صادرة مستوفية لشروطها منتفية موانعها فلا يتبعون المنفق عليه منا منهم عليه وتعدادا للنعم وأذية له قولية أو فعلية فهؤلاء لهم أجرهم عند ربهم بحسب ما يعلمه منه وبحسب نفقاتهم ونفعها وبفضله الذي لا تناله ولا تصل إليه صدقاتهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون فنفى عنهم المكروه الماضي بنفي الحزن والمستقبل بنفي الخوف عليهم فقد حصل لهم المحبوب واندفع عنهم المكروه (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم)[1] ذكر الله أربع مراتب للإحسان المرتبة العليا النفقة الصادرة عن نية صالحة ولم يتبعها المنفق منا ولا أذى ثم يليها قول المعروف وهو الإحسان القولي بجميع وجوهه الذي فيه سرور المسلم والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئا وغير ذلك من أقوال المعروف والثالثة الإحسان بالعفو والمغفرة عمن أساء إليك بقول أو فعل وهذان أفضل من الرابعة وخير منها وهي التي يتبعها المتصدق الأذى للمعطى لأنه كدر إحسانه وفعل خيرا وشرا فالخير المحض وإن كان مفضولا خيرمن الخير الذي يخالطه شر وإن كان فاضلا وفي هذا التحذير العظيم لمن يؤذي من تصدق عليه كما فعله أهل اللؤم والحمق والجهل والله تعالى غني عن صدقاتهم وعن جميع عباده حليم مع كمال غناه وسعة عطاياه يحلم عن العاصين ولا يعاجلهم بالعقوبة بل يعافيهم ويرزقهم ويدر عليهم خيره وهم مبارزون له بالمعاصي[2].

- توضيح:

إن المتدبر لكثير من آي القرآن وأحاديث السنة النبوية الشريفة، يجد فيهما العديد من المواضع التي تحث المؤمنين وتدعوهم إلى الإنفاق في سبيل الله تعالى، والآية الكريمة (البقرة 261) تمثل نموذجًا لذلك، لا شك هناك شعور طاغ يملأ النفس الإنسانية تلك النفس التي تهفو إلى البذل والعطاء لما تجد فيه من شعور بلذة لا يعادله شعور آخر، يقول ذهير بن أبي سلمى:

تراه متهللاً إذا مائجته سائلا   كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقال شاعر آخر في مدح الخليفة:

1/ البقرة: 263.

2/ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تفسير السعدي ج1/ص113، مؤسسة الرسالة (بيروت)

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح.

ويقول آخر:

ما قال لا إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاءه نعم.

تريد هذه الآية ومثيلاتها مما ذكره لنا القرآن العظيم، أن تنزع عن النفس الإنسانية ميولها ونزعتها إلى الشح والبخل، لما يسببه من هم وغم، وما يتركه في النفس من شعور بغيض، قد يتسبب لصاحبه في ظهور أعراض اضرابات نفسية (Psychologicl Desorders). في حين نجد أن الشخص الكريم، والذي ينفق أمواله في سبيل مرضاة الله وطاعته، وينفقها من تلقاء نفسه وعن طيب خاطر، ينشرح صدره لأعمال الخير والبر، فهو يتلذذ بما يغمره من شعور بالبهجة والسرور، وتملأ نفسه مشاعر السعادة والفرح، الأمر الذي يحصنه ويبعده عن أي بوادر أو علامات يمكن أن تتسبب في أي شكل من أشكال المرض النفسي وأعراضه.

سورة البقرة الآيات: 264 ـ 265

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآَتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) البقرة:264-265.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى)، فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى ثم قال تعالى: (كالذي ينفق ماله رئاء الناس)، أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس أو يقال إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ولهذا قال: (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بانفاقه قال الضحاك والذي يتبع نفقته منا أو أذى فقال: (فمثله كمثل صفوان)، وهو جمع صفوانة فمنهم من يقول الصفوان يستعمل مفردا أيضا وهو الصفا وهو الصخر الأملس (عليه تراب فأصابه وابل) وهو المطر الشديد (فتركه صلدا)، أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلدا أي أملس يابسا أي لا شيء عليه من ذلك التراب بل قد ذهب كله أي وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب ولهذا قال (لايقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين).

(وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآَتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

1/ تفسير ابن كثير ج1/ص319.

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم في ذلك (وتثبيتا من أنفسهم)، أي وهم متحققون متثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ونظير هذا في معنى قوله صلى الله عليه وسلم، من صام رمضان إيمانا واحتسابا أي يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه قال الشعبي: (وتثبيتا من أنفسهم) أي تصديقا ويقينا، وكذا قال قتادة وأبو صالح وبن زيد واختاره بن جرير، وقال مجاهد والحسن أي يتثبتون أين يضعون صدقاتهم وقوله (كمثل جنة بربوة) أي كمثل بستان بربوة وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض وزاد بن عباس والضحاك وتجري فيه الأنهار قال بن جرير رحمه الله وفي الربوة ثلاث لغات هن ثلاث قراءات بضم الراء وبها قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق وفتحها وهي قراءة بعض أهل الشام والكوفة ويقال انها لغة تميم وكسر الراء ويذكر أنها قراءة بن عباس وقوله (أصابها وابل) وهو المطر الشديد كما تقدم (فآتت أكلها) أي ثمرتها (ضعفين) أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان (فان لم يصبها وابل فطل) قال الضحاك هو الرذاذ وهو اللين من المطر أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبدا لأنها إن لم يصبها وابل فطل وأيا ما كان فهو كفايتها وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبدا بل يتقبله الله ويكثره وينميه كل عامل بحسبه ولهذا قال (والله بما تعملون بصير) أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

ـ فتح الباري[1]:

(يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى إلى قوله والله لا يهدي القوم الكافرين) قال الزين بن المنير وجه الاستدلال من الآية أن الله تعالى شبه مقارنة المن والأذى للصدقة أو إتباعها بذلك بإنفاق الكافر المرائي الذي لا يجد بين يديه شيئا منه ومقارنة الرياء من المسلم لصدقته أقبح من مقارنة الإيذاء وأولى أن يشبه بإنفاق الكافر المرائي في إبطال إنفاقه له، وقال بن رشيد إقتصر البخاري في هذه الترجمة على الآية ومراده أن المشبه بالشيء يكون أخفى من المشبه به لأن الخفي ربما شبه بالظاهر ليخرج من حيز الخفاء إلى الظهور ولما كان الإنفاق رياء من غير المؤمن ظاهرا في إبطال الصدقة شبه به الإبطال بالمن والأذى أي حالة هؤلاء في الإبطال كحالة هؤلاء هذا من حيث الجملة ولا يبعد أن يراعى حال التفصيل أيضا لأن حال المان شبيه بحال المرائي لأنه لما من ظهر أنه لم يقصد وجه الله وحال

1/ فتح الباري ج3/ص277.

المؤذي يشبه حال الفاقد للإيمان من المنافقين لأن من يعلم أن للمؤذي ناصرا ينصره لم يؤذه فعلم بهذا أن حالة المرائي أشد من حالة المان والمؤذي انتهى ويتلخص أن يقال لما كان المشبه به أقوى من المشبه وابطال الصدقة بالمن والأذى قد شبه بإبطالها بالرياء فيها كان أمر الرياء أشد قوله وقال بن عباس صلدا ليس عليه شيء وصله ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن بن عباس هكذا في قوله فتركه صلدا أي ليس عليه شيء وروى الطبري من طريق سعيد عن قتادة في هذه الآية قال: هذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار يوم القيامة يقول لا يقدرون على شيء مما كسبوا يومئذ كما ترك هذا المطر الصفا نقيا ليس عليه شيء ومن طريق أسباط عن السدي نحوه قوله وقال عكرمة وابل مطر شديد والطل الندى وصله عبد بن حميد عن روح بن عبادة عن عثمان بن غياث سمعت عكرمة قال في قوله وابل قال: مطر شديد والطل الندى.

ـ توضيح:

في الآية السابقة (261البقرة) نهى المولى، جلَّ وعلا، النفوس عن الشح والبخل، ودعاها إلى الكرم والإنفاق في سبيل الله، أما في الآيتين (البقرة: 264-265)، فهناك منع وتحذير من الإعجاب بالنفس، لأنه يتسبب في الأذى والألم لنفس الفقير والمحتاج، أي أن الآية تشير إشارة واضحة إلى عدم تذكير الفقير بفقره وفي ذلك حماية له من الشعور بالحزن والحقد والكراهية ...، وغيرها من الأحاسيس النفسية السالبة والتي قد تؤدي بصاحبها إلى الإنكفاء والإنطواء منسحبًا عن المجتمع، مما يتسبب له في العلل الجسدية والنفسية. ونستخلص مما سبق أمرين: الأول: أن الشخص الذي يتسبب في أذية الغير، أشبه بالصخر الصلد، الذي لا نفع فيه، لما في نفسه من جفاف وبؤس. أما الأمر الثاني: فهو تشبيه نفس المؤمن بالجنة والخضراء، وكلنا يعلم ما في الخضرة من احساس بالجمال الذي يجلب السرور والراحة النفسية.

سورة آل عمران الآية:13

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ) آل عمران:13.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

عن عاصم بن عمرو بن قتادة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وإنك لم تلق مثلنا فأنزل الله في ذلك من قولهم (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد)[2] إلى قوله (لعبرة لأولي الأبصار) ....، ولهذا قال تعالى: (قد كان لكم آية) أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية أي دلالة على أن الله معز دينه وناصر رسوله ومظهر كلمته ومعل أمره (في فئتين) أي طائفتين (التقتا) أي للقتال (فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة) وهم مشركو قريش يوم بدر وقوله (يرونهم مثليهم رأي العين) قال بعض العلماء فيما حكاه بن جرير يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم أي جعل الله ذلك فيما رأوه سببا لنصرة الإسلام عليهم وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة وهي أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يحزر لهم المسلمين فأخبرهم بأنهم ثلاث مئة يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا وهكذا كان الأمر كانوا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلا ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم والقول الثاني أن المعنى في قوله تعالى (يرونهم مثليهم رأي العين) أي يرى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم أي ضعفيهم في العدد ومع هذا نصرهم الله عليهم وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفي عن بن عباس أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين وكان هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير

1/ تفسير ابن كثير ج1/ص351.

2/ آل عمران:12.

وأيام الناس وخلاف المعروف عند الجمهور أن المشركين كانوا ما بين تسعمائة إلى ألف كما رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سأل ذلك العبد الأسود لبني الحجاج عن عدة قريش قال كثير قال كم ينحرون كل يوم قال يوما تسعا ويوما عشرا قال النبي، صلى الله عليه وسلم،: {القوم ما بين التسعمائة إلى ألف} وروى أبو إسحاق السبيعي عن حارثة عن علي رضي الله عنه قال كانوا ألفا وكذا قال بن مسعود والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم لكن وجه بن جرير هذا وجعله صحيحا كما تقول عندي ألف وأنا محتاج إلى مثليها وتكون محتاجا إلى ثلاثة آلاف كذا قال وعلى هذا فلا إشكال لكن بقي سؤال آخر وهو وارد على القولين وهو أن يقال ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر (وإذ يريكموهم إذ إلتقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا) فالجواب أن هذا كان في حالة والآخر كان في حالة أخرى كما قال السدي عن الطيب عن بن مسعود في قوله تعالى (قد كان لكم آية في فئتين التقتا) الآية، قال: هذا يوم بدر قال عبد الله بن مسعود وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا وذلك قوله تعالى (وإذ يريكموهم إذ إلتقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم)[1] الآية، وقال، أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي تراهم سبعين قال أراهم مئة قال فأسرنا رجلا منهم فقلنا كم كنتم قال ألفا فعند ما عاين كل من الفريقين الآخر رأي المسلمون المشركين مثليهم أي أكثر منهم بالضعف ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم عز وجل ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء وهؤلاء في أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر (ليقضي الله أمرا كان مفعولا) أي ليفرق بين الحق والباطل فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان ويعز المؤمنين ويذل الكافرين كما قال تعالى (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) وقال ها هنا (والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي

1/ الأنفال: 44.

الأبصار)[1] أي إن في ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجاري بنصر عباده.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[2]:

(قد كان لكم) يا أهل مكة (آية) علامة لنبوة محمد، صلى الله عليه وسلم، (في فئتين) جمعين جمع محمد وجمع أبي سفيان (التقتا) يوم بدر (فئة) جماعة (تقاتل في سبيل الله) في طاعة الله محمد وأصحابه وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا (وأخرى كافرة) وجماعة أخرى كافرة بالله والرسول أبو سفيان وأصحابه وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا (يرونهم) يرون أنفسهم (مثليهم) مثل أصحاب محمد، صلى الله عليه وسلم، (رأي العين) عيانا ظاهرا بالعين ويقال لها وجه آخر يقول قل للذين كفروا بني قريظة والنضير ستغلبون بالقتل والإجلاء وتحشرون بعد الموت إلى جهنم وبئس المهاد الفراش والمصير أخبرهم بذلك قبل يوم بدر بسنتين ثم نزل قد كان لكم يا معشر اليهود (آية) علامة لنبوة محمد، صلى الله عليه وسلم، (في فئتين) جمعين جمع محمد وجمع أبي سفيان (التقتا) يوم بدر (فئة) جماعة محمد، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه تقاتل في سبيل الله في طاعة وأخرى كافرة وجماعة أخرى كافرة بالله والرسول أبو سفيان وأصحابه ترونهم رأيتموهم يا معشر اليهود (مثليهم) مثل أصحاب محمد رأى العين عيانا ظاهرا (والله يؤيد) يقوى (بنصره من يشاء) يعني محمدا (إن في ذلك) في نصرة الله لمحمد يوم بدر (لعبرة لأولي الأبصار) في الدين يعني المؤمنين ويقال لمن أبصر بالعين.

ـ توضيح:

تحمل الآية الكريمة (آل عمران:13) الدعوة الصريحة إلى التفكر والتمعن، في ما يجري أمام النظر من أحداث، والتبصر والاستبصار في عواقبها، إذ لابد من أخذ العبرة والاعتبار، لاسيما وأن المثل هنا في غاية الوضوح، ولا يحتاج إلى شئ غير التروي والتعقل في الاختيار، حتى تنجو النفس من أهوال يوم الحساب. يقول تعالى:

1/ آل عمران:13.

2/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص43

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)[1].

1/ الحج:2.

سورة آل عمران 117

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) آل عمران117.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

ثم ضرب مثلا لما ينفقه الكفار في هذه الدار قاله مجاهد والحسن والسدي فقال تعالى (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر) أي برد شديد قاله بن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم، وقال عطاء: برد وجليد، وعن بن عباس أيضا ومجاهد (فيها صر) أي نار وهو يرجع إلى الأول فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار كما يحرق الشيء بالنار (أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) أي فأحرقته يعني بذلك السعفة إذا نزلت على حرث قد آن جذاذه أو حصاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع فذهبت به وأفسدته فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرها كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه، وكذلك، هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير اساس (وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون).

ـ تفسير السعدي[2]:

(مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون) بين تعالى أن الكفار والذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله أنه لا ينقذهم من عذاب الله منقذ ولا ينفعهم نافع ولا يشفع لهم عند الله شافع وأن أموالهم وأولادهم التي كانوا يعدونها للشدائد والمكاره لا تفيدهم شيئا وأن نفقاتهم التي أنفقوها في الدنيا لنصر باطلهم ستضمحل وأن مثلها (كمثل حرث أصابته

1/ تفسير ابن كثير ج1/ص398-410.
2/ تفسير السعدي ج1/ص144.

ريح شديدة فيها صر)[1] أي برد شديد أو نار محرقة فأهلكت ذلك الحرث وذلك بظلمهم فلم يظلمهم الله ويعاقبهم بغير ذنب وإنما ظلموا أنفسهم وهذه كقوله تعالى: (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون)[2]، (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور * إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط)[3]، هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار واتخاذهم بطانة أو خصيصة وأصدقاء يسرون إليهم ويفضون لهم بأسرار المؤمنين فوضح لعباده المؤمنين الأمور الموجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة بأنهم (لا يألونكم خبالا) أي هم حريصون غير مقصرين في إيصال الضرر بكم وقد بدت البغضاء من كلامهم وفلتات ألسنتهم وما تخفيه صدورهم من البغضاء والعداوة أكبر مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم فإن كانت لكم فهوم وعقول فقد وضح الله لكم أمرهم وأيضا فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين وفي مقابلة إحسانكم فأنتم مستقيمون على أديان الرسل تؤمنون بكل رسول أرسله الله وبكل كتاب أنزله الله وهم يكفرون بأجل الكتب وأشرف الرسل وأنتم تبذلون لهم من الشفقة والمحبة ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه.

ـ توضيح:

تصور لنا الآية الكريمة (آل عمران 117)، أبلغ تصوير، وجوه الذين ظلموا أنفسهم، حينما يرون أن أعمالهم، التي كانوا يحدوهم الأمل ويسوقهم الرجاء إلى أن تنقذهم من العذاب، وقد أضحت سرابًا، وهو نوع من زيادة الألم وتصعيد الفجيعة في النفس البشرية حين تفاجأ بأمر لم يكن في الحسبان ولم يخطر لها على البال، فمن المؤكد أن هذه الآية

1/ أل عمران:117.
2/ الأنفال: 36.
3/ آل عمران: 118-120.

تنقل لنا صورة حسية، كما أنها ترسم لنا ملامح الوجوه وقد كساها الشعور بالحسرة وجللها الندم، أي الندم حيث لا ينفع الندم، يقول شاعرنا إدريس محمد جماع:

إن حظي كدقيق فوق شوك نثروه

ثم قالوا لحفاة يوم رح أجمعوه

فلما صعب الأمر عليهم قال اتركوه

فمن أشقاه ربي كيف انتم تسعدوه

سورة آل عمران الآية:140

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) آل عمران:140.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

(إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) أي إن كنتم قد أصابتكم جراح وقتل منكم طائفة فقد اصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح (وتلك الأيام نداولها بين الناس) أي نديل عليكم الأعداء تارة وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة ولهذا قال تعالى (وليعلم الله الذين آمنوا)، قال بن عباس: في مثل هذا لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء (ويتخذ منكم شهداء) يعني يقتلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته (والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا) أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به وقوله (ويمحق الكافرين) أي فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم ثم قال تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)[2]، أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد كما قال تعالى في سورة البقرة (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا)[3] الآية، وقال تعالى: (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) الآية، ولهذا قال ها هنا (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله والصابرين على مقاومة الأعداء.

1/ تفسير ابن كثير ج1/ص409.
2/ آل عمران: 142.
3/ البقرة: 214.

ـ تفسير السعدي[1]:

قال تعالى: (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) فأنتم وهم قد تساويتم في القرح ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون، كما قال تعالى: (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر والبر والفاجر فيداول الله الأيام بين الناس يوم لهذه الطائفة ويوم للطائفة الأخرى لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية وهذا بخلاف الدار الآخرة فإنها خالصة للذين آمنوا وليعلم الله الذين آمنوا هذا أيضا من الحكم أنه يبتلى الله عباده بالهزيمة والابتلاء ليتبين المؤمن من المنافق لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريده فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام في الضراء والسراء واليسر والعسر ممن ليس كذلك 0ويتخذ منكم شهداء) وهذا أيضا من بعض الحكم لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها فهذا من رحمته بعباده المؤمنين أن قيض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية والنعيم المقيم (والله لا يحب الظالمين) الذين ظلموا أنفسهم وتقاعدوا عن القتال في سبيله.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[2]:

(إن يمسسكم قرح) إن اصابكم جرح يوم أحد (فقد مس القوم) فقد أصاب أهل مكة يوم بدر (قرح) جرح (مثله) مثل ما أصابكم يوم أحد (وتلك الأيام) أيام الدنيا (نداولها بين الناس) بالدولة نديل المؤمنين على الكافرين والكافرين على المؤمنين (وليعلم الله) لكي يرى الله (الذين آمنوا) في زمن الجهاد (ويتخذ منكم شهداء) يكرم من يشاء منكم بالشهادة (والله لا يحب الظالمين) المشركين ودينهم ودولتهم.

1/ تفسير السعدي ج1/ص150.

2/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص57.

ـ توضيح:

تدعو الآية الكريم (آل عمران 140)، المؤمنين، إلى التفكر والنظر في ما أصابهم من ألم جسدي وما سببه لهم من أحسيس نفسية مؤلمة، وأن يقارنوا حالهم ووضعهم بما أصاب الطرف الآخر، ويعتبروا بذلك النظر؛ فكلاهم قد تعرض للضرر فهم في ذلك سواء من حيث الآلام الجسدية والنفسية، وبذلك تتساوى الكفتان، لأن مثل تلكم الآلام متداولة بين جميع الناس وليست حكرًا على قوم دون آخرين، غيرأن المتدبر يجد أن هناك تغيير لصالح المؤمنون، وذلك حين ينظرون إلى ما ينتظر أولئك من العقاب، وما ينتظرهم من الثواب الإلهي، هنا ترجح كفتهم على كفة الخصم، فتطيب نفوسهم وتطمئن قولبهم، فهم يرجون من الله ما لا يرجوه الآخرون.

سورة المائدة الآية: 31

(فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) المائدة:31.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

وقوله تعالى (فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين) قال السدي بإسناده المتقدم إلى الصحابة رضي الله عنهم لما مات الغلام تركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثى عليه فلما رآه قال: (ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي)، وقال علي بن أبي طلحة عن بن عباس قال: جاء غراب إلى غراب ميت فبحث عليه من التراب حتى واراه فقال الذي قتل أخاه (ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي)، وقال الضحاك عن بن عباس: مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة حتى بعث الله الغرابين فرآهما يبحثان فقال: (أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب) فدفن أخاه، وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد كان يحمله على عاتقه مئة سنة ميتا لا يدري ما يصنع به يحمله ويضعه إلى الأرض حتى رأى الغراب يدفن الغراب فقال: (ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين) رواه بن جرير وبن أبي حاتم، وقال عطية العوفي: لما قتله ندم فضمه إليه حتى أروح وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متى يرمى به فتأكله.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[2]:

(فبعث الله غرابا يبحث في الأرض) يثير التراب من الأرض ليواري غرابا ميتا (ليريه) ليرى قابيل (كيف يواري) يغطي (سوأة أخيه) عورة أخيه في التراب (قال يا ويلتى أعجزت) أضعفت عن الحيلة (أن أكون مثل هذا الغراب) في الحيلة (فأواري) فأغطى (سوأة أخي) عورة

1/ تفسير ابن كثير ج2/ص46.
2/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص92.

أخي بالتراب (فأصبح من النادمين) فصار نادما على ما لم يوار عورة أخيه ولم يكن نادما على قتله.

ـ توضيح:

لنقف ونتأمل ما في هذه الآية، الكريمة (المائدة:31)، من وصف لأحاسيس ومشاعر القاتل وهو يعاني حالة من الألم النفسي ويعتصره الندم القسري على فعلته، وبينما هو يكابد ذلك الموقف العصيب يأتيه الحل والفرج، فيشعر بشئ من الراحة النفسية عندما يتخلص من جثة أخيه، وهو، بلا شك، أمر يبعث الارتياح في النفس، ولكنه شعور مؤقت، لأنه حين يستوعب ما حدث ستزداد عنده مشاعر الألم، أي أن الشعور بالندم سيظل ملازمًا له ولا يفارقه طوال حياته، ويتمنى أن ينتهي الشعور بالألم عند ذاك الحد، ولكن هيهات، فالشعور المؤلم سيطغى وتزداد الحسرة عندما يجد أنه قد تعلم من الغراب، وهو من الطيور التي تنزر بالشؤم والخراب ويتشاءم بها الناس منذ القدم.

سورة الأنعام الآية:122

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام:122.

ـ تفسير القرطبي[1]:

قوله تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه) قرأ الجمهور بفتح الواو دخلت عليها همزة الإستفهام وروى المسيبي عن نافع بن أبي نعيم أومن كان بإسكان الواو، قال النحاس: يجوز أن يكون محمولا على المعنى أي انظروا وتدبروا أغير الله أبتغي حكما (أومن كان ميتا فأحييناه) قيل معناه كان ميتا حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه حكاه بن بحر وقال بن عباس أومن كان كافرا فهديناه نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل وقال زيد بن أسلم والسدي فأحييناه عمر رضي الله عنه (كمن مثله في الظلمات) أبو جهل لعنه الله والصحيح أنها عامة في كل مؤمن وكافر وقيل كان ميتا بالجهل فأحييناه بالعلم وأنشد بعض أهل العلم ما يدل على صحة هذا التأويل لبعض شعراء البصرة:

وفي الجهل قبل الموت موت ... لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرأ لم يحي بالعلم ميت ... فليس له حتى في النشور نشور

والنور عبارة عن الهدى والإيمان وقال الحسن: القرآن، وقيل الحكمة وقيل هو النور المذكور في قوله (يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) الحديد وقوله (انظرونا نقتبس من نوركم) (يمشي به) أي بالنور (في الناس كمن مثله في الظلمات) أي كمن هو، فمثل زائدة تقول أنا أكرم مثلك أي أكرمك ومثله، (فجزاء مثل ما قتل من النعم)[2] تفسير القرطبي (ليس كمثله شيء) الشورى، وقيل المعنى كمن مثله ما قتل من هو في الظلمات والمثل والمثل واحد (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) أي زين لهم الشيطان عبادة الأصنام وأوهمهم أنهم أفضل من المسلمين.

1/ تفسير القرطبي ج7/ص78-79.

2/ المائدة: 95.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[1]:

(أومن كان ميتا) نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل بن هشام هذه الآية (أومن كان ميتا) كافرا (فأحييناه) أكرمناه بالإيمان وهو عمار بن ياسر (وجعلنا له نورا) معرفة (يمشي به) يهتدى به (في الناس) بين الناس ويقال ونجعل له نورا على الصراط في الناس بين الناس (كمن مثله) كمن هو (في الظلمات) في ضلالة الكفر في الدنيا وظلمات جهنم يوم القيامة وهو أبو جهل (ليس بخارج منها) من الكفر الضلالة في الدنيا والظلمات في جهنم (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون).

ـ توضيح:

ترتقي هذه الآية، الكريمة (الأنعام122)، بالإيمان إلى منزلة سامية ومرتبة عالية، فهي تمثل النفس المؤمنة بالإنسان الحي، حياة حسية، أما النفس غير المؤمنة فهي كالجثة الهامدة التي لا حياة فيها، ومن ثم سيعتريها التحلل والتعفن، وهو، في ذلك، أشبه بمن تتنازعه الشكوك وتتناوشه الصرعات التي تنمو وتزداد مع تقدم العمر ومرور السنوات، فهو يعيش في ضنك نفسي وشقاء أبدي.

1/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص118.

سورة الأعراف الآية:176 ـ 177

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ* سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ أَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ) الأعراف:176-177.

ـ تفسير ابن كثير [1]:

وقوله تعالى: (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه) يقول تعالى: (ولو شئنا لرفعناه بها) أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها (ولكنه أخلد إلى الأرض) أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذاتها ونعيمها وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى وقال أبو الراهويه في قوله تعالى: (ولكنه أخلد إلى الأرض) قال تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة بانياس فسجدت الحمارة لله وسجد بلعام للشيطان وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير وغير واحد وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله وكان من قصة هذا الرجل ...، أنه سئل عن هذه الآية (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) فحدث عن سيار أنه كان رجلا يقال له بلعام وكان مجاب الدعوة قال وإن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام أو قال الشام قال فرعب الناس منه رعبا شديدا فأتوا بلعام فقالوا ادع الله على هذا الرجل وجيشه قال حتى أؤامر ربي أو حتى أؤامر قال فآمر في الدعاء عليهم فقيل له لا تدع عليهم فإنهم عبادي وفيهم نبيهم قال فقال لقومه إني قد آمرت ربي في الدعاء عليهم وإني قد نهيت فأهدوا له هدية فقبلها ثم راجعوه فقالوا ادع عليهم فقال حتى أمؤامر ربي فأمر فلم يأمره بشيء فقال قد وامرت فلم يأمرني بشيء فقالوا لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى قال فأخذ يدعو عليهم فإذا دعا عليهم جرى على لسانه الدعاء على قومه وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه دعا أن يفتح لموسى وجيشه أو نحوا من ذلك إن شاء الله قال فقالوا ما نراك تدعو إلا علينا قال ما يجري على لساني إلا هكذا ولو دعوت عليه أيضا مااستجيب لي ولكن سأدلكم على أمر

1/ تفسير ابن كثير ج2/ص266-268.

عسى أن يكون فيه هلاكهم إن الله يبغض الزنى وإنهم إن وقعوا في الزنى هلكوا ورجوت أن يهلكهم الله فأخرجوا النساء تستقبلهم فإنهم قوم مسافرون فعسى أن يزنوا فيهلكوا قال ففعلوا فأخرجوا النساء تستقبلهم قال وكان للملك ابنة فذكر من عظمها ما الله أعلم به قال فقال أبوها أو بلعام لا تمكني نفسك إلا من موسى قال ووقعوا في الزنى قال فأتاها رأس سبط من أسباط بني إسرائيل فأرادها على نفسها فقالت ما أنا بممكنة نفسي إلا من موسى رجل من بني هارون ومعه الرمح فيطعنهما قال وأيده الله بقوة فانتظمهما جميعا ورفعهما على رمحه فرآهما الناس أو كما حدث قال وسلط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا قال أبو المعتمر فحدثني سيار أن بلعاما ركب حمارة له حتى أتى العلولى أو قال طريقا من المعلولي جعل يضربها ولاتتقدم وقامت عليه فقالت علام تضربني أما ترى هذا الذي بين يديك فإذا الشيطان بين يديه قال فنزل وسجد له قال الله تعالى (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فأنسلخ منها) إلى قوله (لعلهم يتفكرون) قال فحدثني بهذا سيار ولا أدري لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره قلت هو بلعام ويقال بلعم بن باعوراء ويقال بن أبر ويقال بن باعور بن شهتوم بن قوشتم بن ماب بن لوط بن هاران ويقال بن حران بن آزر وكان يسكن قرية من قرى البلقاء قال بن عساكر وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم فأنسلخ من دينه له ذكر في القرآن ثم أورد من قصته نحوا مما ذكرنا ها هنا أورده عن وهب وغيره والله أعلم وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم أبي النضر أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه فقالوا له هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل وإنا قومك وليس لنا منزل وانت رجل مجاب الدعوة فأخرج فادع الله عليهم قال ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم قالوا له مالنا من منزل فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب حمارة له متوجها إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل وهو جبل حسبان فلما سار عليها غير كثير ربضت به فنزل عنها فضربها حتى إذا أزلقها قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يابلعم أين تذهب أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا تذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم فلم ينزع عنها فضربها فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه ولا يدعو

لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل فقال له قومه أتدري يابلعم ما تصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا قال فهذا ما لا أملك هذا شيء قد غلب الله عليه قال واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال جملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتموهم ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين أسمها كسبتى ابنة صور رأس أمته برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام فلما رآها أعجبته فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال إني أظنك ستقول هذا حرام عليك لا تقربها قال أجل هي حرام عليك قال فوالله لا أطيعك في هذا فدخل بها قبته فوقع عليها وأرسل الله عز وجل الطاعون في بني إسرائيل وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان غائبا حين صنع زمري بن شلوم ماصنع فجاء والطاعون يجوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفا والمقلل لهم يقول عشرون ألفا في ساعة من النهار فمن هنالك تعطى بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والذراع واللحى والبكر من كل أموالهم وأنفسها لأنه كان بكر أبيه العيزار ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فأنسلخ منها) إلى قوله (لعلهم يتفكرون)، وقوله تعالى (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث)، اختلف المفسرون في معناه فعلى سياق بن إسحاق عن سالم عن أبي النضر أن بلعاما اندلع لسانه على صدره فتشبيهه بالكلب في لهيثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر وقيل معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء كالكلب في لهيثه في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث في الحالين فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولاعدمه كما قال تعالى (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا

يؤمنون استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم)[1] ونحو ذلك وقيل معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب فعبر عن هذا بهذا نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره وقوله تعالى (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (فاقصص القصص لعلهم) أي لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام وماجرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الأسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب في غير طاعة ربه بل دعا به على حزب الرحمن وشعب الإيمان أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان كليم الله موسى بن عمران عليه السلام ولهذا قال لعلهم يتفكرون أي فيحذروا أن يكونوا مثله فإن الله قد أعطاهم علما وميزهم على من عداهم من الأعراب وجعل بأيديهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم يعرفونها كما يعرفون أبناءهم فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلا في الدنيا موصولا بذل الآخرة وقوله (ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) يقول تعالى ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا أي ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لاهمة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيها بالكلب وبئس المثل مثله ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: {ليس لنا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه}، وقوله (وأنفسهم كانوا يظلمون) أي ماظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى وطاعة المولى إلى الركون إلى دار البلى والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

ـ توضيح:

تتضمن هاتان الآيتان الكريمتان (الأعراف:176-177) عبرًا ودروسًا نفسية لا تعيها إلا نفس واعية ولا تدرك كنهها إلا أذن صاغية، فانظر كيف علا شأن ذلك العابد، وكيف ارتقى وارتفع وقد أنفق جل عمره في سلوك تعبدي طاعة لله تعالى، ولكنه في لحظة طائشة أضاع محصول كل تلك السنوات الطوال، إنه، بلا أدنى شك، لا يمكنه أن يدرك حجم الدمار

1/ التوبة:80.

النفسي الذي أحدثه في دخيلة نفسه، والمدى من الإنحدار الذي صار إليه بفعلته، إنه الشعور بالعار والخزي والندم والحسرة والألم ...، وكل ما يمكن أن يخطر على البال من عبارات الأسف على ما أضاع من سنوات، ثم تأتي اللحظة الأسوء، وذلك حين يقارن حاله بحال بالكلب الذي يلهث طوال حياته، لقد تطابقت الحالتان وتشابه الوضعان، إنها صورة ملموسة ومثال حي لمن كان له بعد نظر فيتعظ بما شاهد من سلوك غيره قبل أن يوعظ بنفسه.

سورة يونس الآية: 24

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) يونس:24.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

ضرب تبارك وتعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها وما تأكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) أي زينتها الفانية (وازينت) أي حسنت بما خرج في رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان (وظن أهلها) الذين زرعوها وغرسوها (أنهم قادرون عليها) أي على جذاذها وحصادها فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها ولهذا قال تعالى (أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا) أي يابسا بعد الخضرة والنضارة (كأن لم تغن بالأمس) أي كأنها ما كانت حينا قبل ذلك وقال قتادة كأن لم تغن كأن لم تنعم وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ولهذا جاء في الحديث يؤتى بأنعم أهل الدنيا فيغمس في النار غمسة فيقال له هل رأيت خيرا قط هل مر بك نعيم قط فيقول لا ويؤتى بأشد الناس عذابا في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة ثم يقال له هل رأيت بؤسا قط فيقول لا وقال تعالى إخبارا عن المهلكين (فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها)[2]، ثم قال تعالى (كذلك نفصل الآيات) أي نبين الحجج والأدلة (لقوم يتفكرون) فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعا مع اغترارهم بها وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها وتفلتها عنهم فإن من طبعها الهرب ممن طلبها والطلب لمن هرب منها وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز فقال في سورة الكهف (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء

1/ تفسير ابن كثير ج2/ص414.

2/ هود:67.

أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا)[1]، وكذا في سورة الزمر والحديد يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا.

ـ تفسير القرطبي[2]:

قوله تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) معنى الآية التشبيه والتمثيل أي صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء أي مثل ماء فالكاف في موضع رفع وسيأتي لهذا التشبيه مزيد بيان في الكهف إن شاء الله تعالى أنزلناه من السماء نعت ل ماء فاختلط روي عن نافع أنه وقف على فاختلط أي فاختلط الماء بالأرض ثم ابتداء أي بالماء نبات الأرض فأخرجت ألوانا من النبات فنبات على هذا ابتداء وعلى مذهب من لم يقف على فاختلط مرفوع بإختلط أي اختلط النبات بالمطر أي شرب منه فتندى وحسن واخضر والإختلاط تداخل الشيء بعضه في بعض قوله تعالى (مما يأكل الناس) من الحبوب والثمار والبقول والأنعام من الكلإ والتبن والشعير حتى إذا أخذت الأرض زخرفها أي حسنها وزينتها والزخرف كمال حسن الشيء ومنه قيل للذهب زخرف (وازينت) أي بالحبوب والثمار والأزهار والأصل تزينت أدغمت التاء في الزاي وجيء بألف الوصل لأن الحرف المدغم مقام حرفين الأول منهما ساكن والساكن لا يمكن الابتداء به وقرأ بن مسعود وأبي بن كعب وتزينت على الأصل وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية وأزينت أي أتت بالزينة عليها أي الغلة والزرع وجاء بالفعل على أصله ولو أعله لقال وازانت وقال عوف بن أبي جميلة الأعرابي قرأ أشياخنا وازيانت وزنه اسوادت وفي رواية المقدمي وازاينت والأصل فيه تزاينت وزنه تقاعست ثم أدغم وقرأ الشعبي وقتادة وأزينت مثل أفعلت وقرأ عثمان النهدي وازينت مثل افعلت وعنه أيضا وازيانت مثل أفعالت وروي عنه ازيأنت بالهمزة ثلاث قراءات قوله تعالى (وظن أهلها) أي أيقن (أنهم قادرون عليها) أي على حصادها والانتفاع بها أخبر عن الأرض والمعنى النبات إذ كان مفهوما وهو منها وقيل رد إلى الغلة وقيل إلى الزينة (أتاها أمرنا) أي عذابنا أو أمرنا بهلاكها (ليلا أو نهارا) ظرفان (فجعلناها حصيدا) مفعولان أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها وقال حصيدا ولم يؤنث لأنه فعيل بمعنى مفعول قال أبو عبيد الحصيد المستأصل

1/ الكهف:45.

2/ تفسير القرطبي ج8/ص327-328.

(كأن لم تغن بالأمس) أي لم تكن عامرة من غني إذا أقام فيه وعمره والمغاني في اللغة المنازل التي يعمرها الناس وقال قتادة كأن لم تنعم قال لبيد وغنيت سبتا قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود وقراءة العامة تغن بالتاء لتأنيث الأرض وقرأ قتادة يغن بالياء يذهب به إلى الزخرف يعني فكما يهلك هذا الزرع هكذا (كذلك) الدنيا (نفصل الآيات) أي نبينها (لقوم يتفكرون) في آيات الله.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[1]:

(إنما مثل الحياة الدنيا) في بقائها وفنائها (كماء أنزلناه من السماء) يعني المطر (فاختلط به نبات الأرض) اختلط بنبات الأرض (مما يأكل الناس) الحبوب والثمار (والأنعام) العكوش من النبات والحشيش (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) زينتها (وازينت) بالأحمر والأصفر والأخضر (وظن أهلها) الحراثون (أنهم قادرون عليها) على غلاتها (أتاها أمرنا) عذابنا (ليلا أو نهارا) كأنما داست الغنم في خفافها فأفسد زروع الزارعين (فجعلناها حصيدا) كحصيد الصيف (كأن لم تغن بالأمس) لم تكن بالأمس (كذلك) هكذا (نفصل الآيات) نبين القرآن في فناء الدنيا (لقوم يتفكرون) في أمر الدنيا والاخرة.

ـ توضيح:

تبلغ هذه الآية الكريمة (يونس:24) الزروة، من خلال ما تطرحه من نموذج مثالي تدعونا إلى أن نتمثله في نفوسنا، حيث تقارن، الآية، بين حالين، حال يحدث في هذه الحياة الحسية التي نتفيأ ظلالها ونتفاعل معها، وبين حالة معنوية يمثلها ما تحدثه الماء في الأرض من اخضرار ونماء وازدهار، فكأن الآية تريد أن تلفت انتباهنا وتنبهنا إلى أمر جلل وفي غاية الأهمية، ألا وهو الغرور، أي ألا تغتر نفوسنا بما في أيدينا مما هو زائل، وإنما يجب أن تهفو نفوسنا إلى النعيم الدائم، والغرور هو سلوك نفسي، ذميم، يتسلط على الشخص ويسيطر عليه، ويجعله يتعالى على الآخرين، وهنا تصبح ثقته بنفسه أعلى من الحد المعقول وتتجاوز حدها بالإفراط فتنقلب إلى غرور، وهو ما ينبغي أن ننتهي عنه فلا يغرننا بالله الغرور.

1/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص172.

سورة يونس الآية: 27

(وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) يونس:27.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

لما أخبر تعالى عن حال السعداءالذين يضاعف لهم الحسنات ويزدادون على ذلك عطف بذكر حال الأشقياء فذكر تعالى عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك (وترهقهم) أي تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل) الآية، وقال تعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم) الآيات، وقوله (ما لهم من الله من عاصم) أي مانع ولا واق يقيهم العذاب كقوله تعالى (يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لاوزر إلى ربك يومئذ المستقر) وقوله (كأنما أغشيت وجوههم) الآية إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة كقوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون)[2] وقوله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة) الآية.

ـ تفسير السعدي[3]:

(والذين كسبوا السيئات جزآء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أول ئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال

1/ تفسير ابن كثير ج2/ص416.
2/ آل عمران: 107.
3/ تفسير السعدي ج1/ص362.

السيئة المسخطة لله من أنواع الكفر والتكذيب وأصناف المعاصي ف (جزاء) هم (سيئة بمثلها) أي جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم (وترهقهم) أي تغشاهم (ذلة) في قلوبهم وخوف من عذاب الله لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم فتكون سوادا في وجوههم (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فكم بين الفريقين من الفرق ويا بعد ما بينهما من التفاوت (وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة * ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة)[1]، (وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليه غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة)[2]، (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركآؤكم فزيلنا بينهم وقال شركآؤهم ما كنتم إيانا تعبدون * فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين * هنالك تبلوا كل نفس مآ أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون)[3].

ـ توضيح:

تمثل هذه الآية (يونس:27) منتهى العدل في الحكم دون شك، ولكننا، هنا، لا نهدف إلى توضيح المعاني بقدر ما نرمي إلى استجلاء الصورة النفسية لمرتكب السيئة، والذي لا يملك من أمر نفسه شيئًا، إلا أنه لا يدري، بل ربما كان يعتقد، بينه وبين نفسه، أنه على صواب، ولكن الحقيقة البينة، هي أنه متنازع بين الشك واليقين، فلا يركن إلى القين حتى تنتابه الشكوك والظنون فهو ليست على يقين من أمره، ولذلك يسيطر عليه شعور بالضيق والحزن والقنوط وانقباض الصدر ووهن النفس وضعف البدن ...، وغيره من مظاهر التفكير السوداوي المضطرب والمنحرف عن جادة السواء، فلا تهدأ نفسه المنحرفة ولا يطمئن قلبه المضطرب إلى أمر من أموره إلى أن تقوم الساعة.

1/ القيامة: 22-25.
2/ عبس: 38-42.
3/ يونس: 28-30.

سورة هود، الآية: 24

(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِوَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) هود:24.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال: (مثل الفريقين) أي الذين وصفهم أولا بالشقاء والمؤمنين بالسعادة فأولئك كالأعمى والأصم وهؤلاء كالبصير والسميع فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم)[2] الآية، وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل فيتبع الخير ويترك الشر سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة فلا يروج عليه باطل فهل يستوي هذا وهذا (أفلا تذكرون) أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء كما قال في الآية الأخرى (لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون)[3]، وكقوله (وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير)[4].

ـ تفسير السعدي[5]:

(مثل الفريقين) أي فريق الأشقياء وفريق السعداء (كالأعمى والأصم) هؤلاء الأشقياء (والبصير والسميع) مثل السعداء (هل يستويان مثلا) لا يستويون مثلا بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف (أفلا تذكرون) الأعمال التي تنفعكم فتفعلونها والأعمال التي تضركم فتتركونها.

1/ تفسير ابن كثير ج2/ص443.
2 /
3/ الحشر:20-24.
4/ فاطر: 22.
5/ تفسير السعدي ج1/ص380.

ـ تفسير القرطبي[1]:

قوله تعالى (مثل الفريقين) ابتداء والخبر (كالأعمى) وما بعده قال الأخفش: أي كمثل الأعمى ...، التقدير مثل فريق الكافر كالأعمى والأصم ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير ولهذا قال (هل يستويان) فرد إلى الفريقين وهما اثنان روي معناه عن قتادة وغيره قال الضحاك الأعمى والأصم مثل للكافر والسميع والبصير مثل للمؤمن وقيل المعنى هل يستوي الأعمى والبصير وهل يستوي الأصم والسميع مثلا منصوب على التمييز (أفلا تذكرون) في الوصفين وتنظرون.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[2]:

(مثل الفريقين) الكافر والمؤمن (كالأعمى والأصم) يقول مثل الكافر كالأعمى لا يبصر الحق والهدى وكالأصم لا يسمع الحق والهدى (والبصير والسميع) يقول ومثل المؤمن كمثل البصير يبصر الحق والهدى وكالسميع يسمع الحق والهدى (هل يستويان مثلا) في المثل يقول هل يستوي الكافر مع المؤمن في الطاعة والثواب (أفلا تذكرون) أفلا تتعظون بأمثال القرآن فتؤمنوا.

ـ توضيح:

المثل في الآية الكريمة (هود:24) يقارن بين فئتين، الفئة الأولى لا تدري من أمرها شيئًا فهي مترددة وتتخبط في اتجاهاتها وتسير بغير هدى ودون أن تعلم ماذا تفعل في دنياها، وما هو مصيرها ومآلها بعد أن تفارق الأرواح الأجساد ...، أما الفئة الثانية فهي تسير وفق منهج وبرنامج مدروس منذ مبتدئه وحتى قيام الساعة، وبهذا تكون الفئة الثانية مدركة لواقعها ومستبصرة بمستقبلها ومآلها، فهي مطمئنة النفس هادئة البال، تعمل على قدر طاقتها وجهدها وترجو من الله العفو والغفران على تقصيرها في ما كلفها الله به. إذًا فالنتيجة هي، أن الفريقين (الفئتين) لا يتساويان على الاطلاق؛ لأن الفريق الأول قد ضل الطريق

1/ تفسير القرطبي ج9/ص21-22.
2/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص183.

حينما عطل بنفسه أهم وسيلة للمعرفة والإدراك وهي العقل، الشئ الذي جعله على قدم المساواة مع من فقد حاستي السمع والبصر في التخبط وعدم الاهتداء، بينما اهتدى الفريق الثاني إلى سواء السبيل حينما هداه الله، تعالى، إلى التفكر الوجداني والتفكير العقلاني، فكان بمثابة من يستفيد من نعمتي السمع والبصر، وهما وسيلتا النفس البشرية المطمئنة للحركة على هدى وبصيرة.

سورة الرعد الآية:6

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) الرعد:6.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

يقول تعالى: (ويستعجلونك) أي هؤلاء المكذبون (بالسيئة قبل الحسنة) أي بالعقوبة كما أخبر عنهم في قوله (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين)[2]، وقال تعالى: (ويستعجلونك بالعذاب)[3] الآيتين، وقال تعالى: (سأل سائل بعذاب واقع)[4]، وقال: (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق وقالوا ربنا عجل لنا قطنا)[5] الآية، أي عقابنا وحسابنا كما قال مخبرا عنهم (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) الآية، فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله، قال الله تعالى (وقد خلت من قبلهم المثلاث) أي قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال: (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة)[6]، وقال تعالى، في هذه الآية الكريمة: (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف.

1/ تفسير ابن كثير ج2/ص502.
2/ الحجر:6-8.
3/ الحج:47.
4/ المعارج:1.
5/ ص:16
6/ فاطر:45.

ــ تفسير السعدي[1]:

(ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله المشركين به الذين وعظوا فلم يتعظوا وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها بل جاهروا بالإنكار واستدلوا بحلم الله الواحد القهار عنهم وعدم معاجلتهم بذنوبهم أنهم على حق وجعلوا يتعجلون الرسول بالعذاب ويقول قائلهم (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)[2] (و) الحال أنه (قد خلت من قبلهم المثلات) أي وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين (أفلا يتفكرون) في حالهم ويتركون جهلهم (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أي لايزال خيره إليهم وإحسانه وبره وعفوه نازلا إلى العباد وهم لا يزال شركهم وعصيانهم إليه صاعدا يعصونه فيدعوهم إلى بابه ويجرمون فلا يحرمهم خيره وإحسانه فإن تابوا إليه فهو حبيبهم لأنه يحب التوابين ويحب المتطهرين وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم يبتليهم بالمصائب.

ـ تفسير القرطبي[3]:

قوله تعالى (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) أي لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب قيل هو قولهم اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الأنفال قال قتادة طلبوا العقوبة قبل العافية وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة وقيل قبل الحسنة أي قبل الإيمان الذي يرجى به الأمان والحسنات والمثلات العقوبات الواحدة مثلة وروي عن الأعمش أنه قرأ المثلات بضم الميم وإسكان الثاء وهذا جمع مثلة ويجوز المثلات تبدل من الضمة فتحة لثقلها وقيل يؤتى بالفتحة عوضا من الهاء وروي عن الأعمش أنه قرأ المثلات بفتح الميم وإسكان الثاء فهذا جمع مثلة ثم حذف الضمة لثقلها ذكره جميعه النحاس رحمه الله وعلى قراءة الجماعة واحدة مثلة نحو صدقة

1/ تفسير السعدي ج1/ص413.
2/ الأنفال:32.
3/ تفسير القرطبي ج9/ص284-285.

وصدقة وتميم تضم الثاء والميم جميعا واحدها على لغتهم مثلة بضم الميم وجزم الثاء مثل غرفة وغرفات والفعل منه مثلت به أمثل مثلا بفتح الميم وسكون الثاء (وإن ربك لذو مغفرة) أي لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا وعن المذنبين إذا تابوا وقال، ابن عباس أرجى آية في كتاب الله تعالى (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) إذا أصروا على الكفر، وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنأ أحدا عيش ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتكل كل واحد}، قوله تعالى: (ويقول الذين كفروا لولا) أي هلا (أنزل عليه آية من ربه)[1] لما اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه، صلى الله عليه وسلم، (إنما أنت منذر) أي معلم (ولكل قوم هاد)[2] أي نبي يدعوهم إلى الله وقيل الهادي الله أي عليك الإنذار والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[3]:

(ويستعجلونك) يا محمد (بالسيئة) بالعذاب استهزاء (قبل الحسنة) قبل العافية لا يسألونك العافية (وقد خلت) مضت (من قبلهم المثلات) العقوبات فيمن هلك (وإن ربك لذو مغفرة للناس) تجاوز للناس لأهل مكة (على ظلمهم) على شركهم إن تابوا وآمنوا (وإن ربك لشديد العقاب) لمن مات على الشرك.

ـ توضيح:

من الناس، وهم كثر، من لا يملك القدرة على ادراك الحقائق الظاهرة والبينة الوضوح، مهما ظهرت وتجلت له عيانًا بيانًا، فبالرغم من أن الآية الكريمة (الرعد:6) قد لفتت الأنظار ونبهت المدارك، لكي يتعظ ذوو العقول من الناس، بأقوام سبقوهم وعاشوا قبلهم، وأن يعتبروا بهم، إلا أن عقولهم قد أضحت صخورًا صلدة. أولئك هم الملحدون بالكلية، والمنكرون

1/ يونس:20.
2/ الرعد:7.
3/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص205.

للوجود الإلهي بالمطلق، ولذلك لجوا في عتوهم ونفورهم من اتباع الحق، فبدلاً من أن تلين نفوسهم ويطلبوا هداية الله لنفوسهم المطربة، والرشاد لعقولهم المظلمة الخربة، تجدهم يسارعون في طلب العقاب، ولعل في هذا دلالة على قساوة القلوب وتصلب العقول وتحجر الأفكار، فأمثال هؤلاء لم ينفعهم الوعد الرباني بالمغفرة، ولا الوعيد بالعذاب.

سورة الرعد الآية: 17

(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) الرعد:17.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

قوله تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) الآية، هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها فأما الشك فلا ينفع معه العمل وأما اليقين فينفع الله به أهله وهو قوله (فأما الزبد) وهو الشك (فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) وهو اليقين وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك وقال العوفي عن بن عباس قوله (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا) يقول احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة (ومما يوقدون عليه في النار) فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد فللنحاس والحديد خبث فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله والعمل السيء يضمحل عن أهله كما يذهب هذا الزبد وكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله فمن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جيده فينتفع به فكذلك يضمحل الباطل فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك وينتفع أهل الحق بالحق وهكذا روي في تفسيرها عن مجاهد والحسن البصري وعطاء وقتادة وغير واحد من السلف والخلف وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين ناريا ومائيا وهما قوله (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله) الآية ثم قال (أو كصيب من السماء).

1/ تفسير ابن كثير ج2/ص509.

ـ تفسير القرطبي[1]:

قوله تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا) ضرب مثلا للحق والباطل فشبه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الأودية وتدفعه الرياح فكذلك يذهب الكفر ويضمحل على مانبينه قال مجاهد فسالت أودية بقدرها قال بقدر ملئها وقال بن جريج بقدر صغرها وكبرها وقرأ الأشهب العقيلي والحسن بقدرها بسكون الدال والمعنى واحد وقيل معناها بما قدر لها والأودية جمع الوادي وسمي واديا لخروجه وسيلانه فالوادي على هذا اسم للماء السائل وقال أبو علي فسالت أودية توسع أي سال ماؤها فحذف قال ومعنى بقدرها بقدر مياهها لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها فاحتمل السيل زبدا رابيا أي طالعا عاليا مرتفعا فوق الماء وتم الكلام قاله مجاهد ثم قال (ومما يوقدون عليه في النار) وهو المثل الثاني (ابتغاء حلية) أي حلية الذهب والفضة (أو متاع زبد مثله) قال مجاهد الحديد والنحاس والرصاص وقوله زبد مثله أي يعلو هذه الأشياء زبد كما يعلو السيل وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبدا كذلك ما يوقد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما ينبث في الأرض من المعادن فقد خالطه التراب فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايله تراب الأرض وقوله (كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء) قال مجاهد جمودا وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو بن العلاء أجفأت القدر إذا غلت حتى ينصب زبدها وإذا جمد في أسفلها والجفاء ما أجفاه الوادي أي رمى به وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ جفالا قال أبو عبيدة يقال أجفلت القدر إذا قذفت بزبدها وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته (وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) قال مجاهد هو الماء الخالص الصافي وقيل الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص وهو أن المثلين ضربهما الله للحق في ثباته والباطل في اضمحلاله فالباطل وإن علا في بعض الأحوال فإنه يضمحل كاضمحلال الزبد والخبث وقيل المراد مثل ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب فشبه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه وشبه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل في الأودية بحسب سعتها

1/ تفسير القرطبي ج9/ص304-305.

وضيقها قال بن عباس (أنزل من السماء ماء) قال قرآنا (فسالت أودية بقدرها) قال الأودية قلوب العباد قال صاحب.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[1]:

(أنزل من السماء ماء) يقول أنزل جبريل بالقرآن وبين فيه الحق والباطل (فسالت أودية بقدرها) فاحتملت القلوب المنورة الحق بقدر سعتها ونورها (فاحتمل السيل) القلوب المظلمة (زبدا رابيا) باطلا كثيرا بهواها (ومما يوقدون عليه في النار) وهذا مثل آخر يقول ومما تطرحون في النار من الذهب والفضة فيه حيث مثل زبد البحر الملح (ابتغاء) طلب (حلية) تلبسونها يقول مثل الحق مثل الذهب والفضة ينتفع بهما كذلك الحق ينتفع به صاحبه ومثل الباطل مثل خبث الذهب والفضة لا ينتفع به كذلك لا ينتفع بالباطل صاحبه (أو متاع) أو حديد أو نحاس (زبد مثله) يقول يكون له خبث مثله مثل زبد الماء وهذا مثل آخر يقول مثل الحق كمثل الحديد والنحاس ينتفع بهما فكذلك الحق ينتفع به صاحبه ومثل الباطل كمثل خبث الحديد والنحاس لا ينتفع به كما لا ينتفع بخبث الحديد والنحاس (كذلك يضرب الله) يبين الله الحق والباطل (فأما الزبد فيذهب جفاء) يقول يذهب كما جاء لا ينتفع به فكذلك الباطل لا ينتفع به (وأما ما ينفع الناس) وهو الماء الصافي والذهب والفضة والحديد والنحاس (فيمكث في الأرض) ينتفع به فكذلك الحق ينتفع به (كذلك يضرب الله الأمثال) يبين الله أمثال الحق والباطل.

ـ توضيح:

تطابق معنى هذه الآية الكريمة (الرعد:17) مع واقع حال الناس، من حيث ما ينتاب النفس البشرية من الشكوك وما يتنازعها من عدم اليقين، وهي نفس من لم يصدق ولم يؤمن بالرسالات، ولذلك ضلت الطريق إلى الله وظلت نهبًا للهواجس والظنون، أما نفس المؤمن فقد صدقت وآمنت واطمأنت وأيقنت بحديث الرسل، فانتفعت بذلك المسلك الذي سلكته، قال تعالى:

1/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص207.

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآَبٍ)[1].

1/ الرعد: 28-29.

سورة إبراهيم 18

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) إبراهيم:18.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره وكذبوا رسله وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها فقال تعالى: (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم) أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئا ولا ألفوا حاصلا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة (في يوم عاصف) أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية فلم يقدروا علي شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم كقوله تعالى: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)[2]، وقوله تعالى: (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وماظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون) ، وقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين)[3]، وقوله في هذه الآية (ذلك هو الضلال البعيد) أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ماكانوا إليه، (ذلك هو الضلال البعيد).

ـ تفسير السعدي[4]:

(مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد) يخبر، تعالى، عن أعمال الكفار التي عملوها

1/ تفسير ابن كثير ج2/ص528.

2/ الفرقان:23.

3/ البقرة: 264.

4/ تفسير السعدي ج1/ص424.

إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد الذي هو أدق الأشياء وأخفها إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب فإنه لا يبقى منه شيء ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل فكذلك أعمال الكفار (لا يقدرون مما كسبوا على شيء) ولا على مثقال ذرة منه لأنه مبني على الكفر والتكذيب (ذلك هو الضلال البعيد) حيث بطل سعيهم واضمحل عملهم وإما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها ليكيدوا بها الحق فإنهم يسعون ويكدحون في ذلك ومكرهم عائد عليهم ولن يضروا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئا.

ـ تفسير القرطبي[1]:

قوله تعالى: (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد) اختلف النحويون في رفع مثل فقال سيبويه ارتفع بالابتداء والخبر مضمر التقدير وفيما يتلى عليكم أو يقص مثل الذين كفروا بربهم ثم ابتدأ فقال أعمالهم كرماد أي كمثل رماد (اشتدت به الريح9، وقال الزجاج أي مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالهم كرماد، وهو عند الفراء على إلغاء المثل التقدير (والذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد) وعنه أيضا أنه على حذف مضاف التقدير مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد وذكر الأول عنه المهدوي والثاني القشيري والثعلبي ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال صفة فلان أسمر ...، بمعنى صفة ويجوز في الكلام جر أعمالهم على بدل الاشتمال من الذين واتصل هذا بقوله وخاب كل جبار عنيد والمعنى أعمالهم محبطة غير مقبولة والرماد ما بقي بعد احتراق الشيء فضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف والعصف شدة الريح وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى وفي وصف اليوم بالعصوف ثلاثة أقاويل أحدها أن العصوف وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصف به لأن الريح تكون فيه فجاز أن يقال يوم عاصف كما يقال يوم حار ويوم بارد والبرد والحر فيهما والثاني أن يريد في يوم عاصف الريح لأنها ذكرت في أول الكلمة كما قال الشاعر:

إذا جاء يوم مظلم الشمس كاسف

1/ تفسير القرطبي ج9/ص353-354.

يريد كاسف الشمس فحذف لأنه قد مر ذكره ذكرهما الهروي والثالث أنه من نعت الريح غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل جحر ضب خرب، ذكره الثعلبي والماوردي وقرأ بن أبي إسحاق وإبراهيم بن أبي بكر في يوم عاصف (لا يقدرون) يعني الكفار (مما كسبوا على شيء) يريد في الآخرة أي من ثواب ما عملوا من البر في الدنيا لإحباطه بالكفر (ذلك هو الضلال البعيد) أي الخسران الكبير وإنما جعله كبيرا بعيدا لفوات استدراكه بالموت.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[1]:

(مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم) يقول مثل أعمال الذين كفروا بربهم (كرماد اشتدت) ذرت (به الريح في يوم عاصف) قاصف شديد من الريح (لا يقدرون مما كسبوا على شيء) يقول لا يجدون ثواب شى ء مما عملوا من الخير في الكفر كما لا يوجد من الرماد شيء إذا ذرته الريح (ذلك) الكفر والعمل لغير الله (هو الضلال البعيد) الخطأ البعيد عن الحق والهدى.

ـ توضيح:

لقد جسدت الآية الكريمة (إبراهيم: 18) المثل للحواس حتى تطابقت الصورة التخيلية مع الواقع المعاش والمشاهد، حيث أصبح المثل المنطوق أو المكتوب، كأنه صورة حسية تُرى بالعين المبصرة، وملموسة باليد، فمن منا من لم ير ما تفعله الرياح في الرماد، ناهيك به (الرماد) في يوم عاصف شديد الرياح، فلا شك في أنه سيصبح أثرًا بعد عين في أقل من لحظات، ولك أن تتفكر وتتأمل في وجوه أولئك الذين استحبوا الكفر على الإيمان، فكان مصير أعمالهم كمصير الرماد وقد عصفت به العواصف، أمام أعينهم دون أن يتمكنوا من فعل شئ، ولا أحسب أن كميرة فوتوغرافية يمكنها أن تجسد لنا ما جسده المثل في الآية المذكورة. وفي مثل هذا الموقف يتجلى الشعور الآسف، وتكتسي الوجوه بالندم الكاسف، ويتطابق حال أولئك النفر مع حال صاحب الجنتين حين رأى خراب جنتيه أمام ناظريه، فأصبح يقلب كفيه، ندمًا وأسفًا، على ما بذله من جهد جهيد في تعميرهما، ولسان حاله يقول:

1/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص212

(يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا)[1].

وينتهي المطاف بمثل هؤلاء الناس في جهنم

(وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا)[2].

1/ الكهف:42.
2/ الإسراء:39.

سورة إبراهيم الآية: 24-26

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ) إبراهيم: 24-26.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: (مثلا كلمة طيبة) شهادة أن لاإله إلا الله (كشجرة طيبة) وهو المؤمن (أصلها ثابت) يقول لا إله إلا الله في قلب المؤمن (وفرعها في السماء) يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن وقوله الطيب وعمله الصالح وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء وهكذا رواه السدي عن مرة عن بن مسعود قال هي النخلة وشعبة عن معاوية بن قرة عن أنس هي النخلة وحماد بن سلمة عن شعيب بن الحبحاب عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بقناع بسر فقرأ (مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) قال هي النخلة وروي من هذا الوجه ومن غيره عن أنس موقوفا وكذا نص عليه مسروق ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وغيرهم وقال البخاري حدثنا عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمرقال كنا عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: {أخبروني عن شجرة تشبه أو كالرجل المسلم لا يتحات ورقها صيفا ولا شتاء وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها}، قال بن عمر فوقع في نفسي أنها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم فلما لم يقولوا شيئا، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هي النخلة فلما قمنا قلت لعمر يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة قال ما منعك أن تتكلم قلت لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا، قال: عمر لأن تكون قلتها أحب الي من كذا وكذا وقال أحمد: حدثنا سفيان عن بن أبي نجيح عن مجاهد صحبت بن عمر إلى المدينة فلم أسمعه يحدث عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلا حديثا واحدا، قال: كنا عند

1/ تفسير ابن كثير ج2/ص531-532.

رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأتى بجمار، فقال: من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم، فأردت أن أقول هي النخلة فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هي النخلة ...، وقال مالك وعبد العزيز عن عبد الله بن دينار عن بن عمر قال، قال: رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوما لأصحابه، إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها مثل المؤمن، قال فوقع الناس في شجر البوادي ووقع في قلبي أنها النخلة فاستحييت حتى قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هي النخلة، ...، أيضا وقال بن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبان يعني بن زيد العطار حدثنا قتادة: أن رجلا قال: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، فقال: {أرأيت لو عمد إلى متاع الدنيا فركب بعضه على بعض أكان يبلغ السماء أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء قال ما هو يا رسول الله قال تقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله عشر مرات في دبر كل صلاة فذاك أصله في الأرض وفرعه في السماء} وعن ابن عباس (كشجرة طيبة) قال: هي شجرة في الجنة وقوله (تؤتي أكلها كل حين) قيل غدوة وعشيا وقيل كل شهر وقيل كل شهرين وقيل كل ستة أشهر وقيل كل سبعة أشهر وقيل كل سنة والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين (بإذن ربها) أي كاملا حسنا كثيرا طيبا مباركا (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) وقوله تعالى (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات مشبه بشجرة الحنظل ويقال لها الشريان رواه شعبة عن معاوية بن أبي قرة ...، قال: (مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) قال: هي النخلة (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) قال: هي الشريان، ...، عن أنس بن مالك: أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) هي الحنظلة، فأخبرت بذلك أبا العالية، فقال: هكذا كنا نسمع، ...، عن أنس، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أتى بقناع عليه بسر، فقال: (مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها)، فقال: هي النخلة، (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فرق الأرض مالها من قرار) قال: هي الحنظل، قال شعيب فأخبرت بذلك أبا العالية فقال كذلك كنا نسمع، وقوله (اجتثت) أي استؤصلت (من فوق الأرض مالها من قرار) أي لا أصل لها ولا ثبات كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ولا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل منه شيء.

ـ تفسير السعدي[1]:

يقول تعالى: (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة) وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها (كشجرة طيبة) وهي النخلة (أصلها ثابت) في الأرض (وفرعها) منتشر (في السماء) وهي كثيرة النفع دائما (تؤتي أكلها) أي ثمرتها (كل حين بإذن ربها) فكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن علما واعتقادا وفرعها من الكلم الطيب والعلم الصالح والأخلاق المرضية والآداب الحسنة في السماء دائما يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينتفع غيره (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) ما أمرهم به ونهاهم عنه فإن في ضرب الأمثال تقريبا للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة ويتبين المعنى الذي أراده الله غاية البيان ويتضح غاية الوضوح وهذا من رحمته وحسن تعليمه فلله أتم الحمد وأكمله وأعمه فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها في قلب المؤمن ثم ذكر ضدها وهي كلمة الكفر وفرعها فقال (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) المأكل والمطعم وهي شجرة الحنظل ونحوها (اجتثت) هذه الشجرة (من فوق الأرض ما لها من قرار) أي ثبوت فلا عروق تمسكها ولا ثمرة صالحة تنتجها بل إن وجد فيها ثمرة فهي ثمرة خبيثة كذلك كلمة الكفر والمعاصي ليس لها ثبوت نافع في القلب ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث يؤذي صاحبه ولا يصعد إلى الله منه عمل صالح ولا ينفع نفسه ولا ينتفع به غيره.

ـ تفسير القرطبي[2]:

قوله تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا) لما ذكر تعالى مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ذكر مثل أقوال المؤمنين وغيرها ثم فسر ذلك المثل فقال: (كلمة طيبة) الثمر فحذف لدلالة الكلام عليه، قال ابن عباس: الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن وقال مجاهد وبن جريج الكلمة الطيبة الإيمان عطية العوفي والربيع بن أنس هي المؤمن نفسه، وقال مجاهد أيضا وعكرمة: الشجرة النخلة فيجوز أن يكون المعنى أصل الكلمة في قلب المؤمن وهو الإيمان شبهه بالنخلة في المنبت وشبه ارتفاع

1/ تفسير السعدي ج1/ص425.

2/ تفسير القرطبي ج9/ص359-362.

عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة وثواب الله له بالثمر وروي من حديث أنس عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: {إن مثل الإيمان كمثل شجرة ثابتة الإيمان عروقها والصلاة أصلها والزكاة فروعها والصيام أغصانها والتأذي في الله نباتها وحسن الخلق ورقها والكف عن محارم الله ثمرتها}، ويجوز أن يكون المعنى أصل النخلة ثابت في الأرض أي عروقها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها فهي زاكية نامية، وخرّج الترمذي من حديث أنس بن مالك، قال: أتى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بقناع فيه رطب، فقال: (مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها)، قال: هي النخلة، (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار)، قال: هي الحنظل، وروي عن أنس قوله وقال وهو أصح وخرّج الدارقطني عن ابن عمر قال: قرأ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، (ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت)، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أتدرون ما هي؟ فوقع في نفسي أنها النخلة، قال السهيلي: ولا يصح فيها ما روي عن علي بن أبي طالب، أنها جوزة الهند، لما صح عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في حديث ابن عمر، إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن خبروني ما هي؟ ثم قال: هي النخلة، خرّجه مالك الموطأ من رواية بن القاسم وغيره إلا يحيى فإنه أسقطه من روايته وخرجه أهل الصحيح وزاد فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوي رحلة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: وهي النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة، فبين معنى الحديث والمماثلة، قلت: وذكر الغزنوي، عنه عليه السلام، {مثل المؤمن كالنخلة إن صاحبته نفعك وإن جالسته نفعك وإن شاورته نفعك كالنخلة كل شيء منها ينتفع به}، وقال: {كلوا من عمتكم}، يعني النخلة خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام وكذلك أنها برأسها تبقى وبقلبها تحيا وثمرها بامتزاج الذكر والأنثى وقد قيل إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شبهت به وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت الغصون من جوانبها والنخلة إذا قطع رأسها يبست وذهبت أصلا ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان في الالتقاح لأنها لا تحمل حتى تلقح قال النبي، صلى الله عليه وسلم، {خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة والإبار اللقاح} وسيأتي في سورة الحجر بيانه ولأنها من فضلة طينة آدم ويقال إن الله عز وجل لما صور آدم من الطين فضلت قطعة طين فصورها بيده وغرسها في جنة عدن قال النبي، صلى الله عليه وسلم، أكرموا عمتكم، قالوا: ومن عمتنا يا رسول الله قال: النخلة (تؤتي أكلها كل حين)، قال الربيع كل حين غدوة وعشية كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخره وقال

بن عباس وعنه تؤتي أكلها كل حين قال هو شجرة جوزة الهند لا تتعطل من ثمرة تحمل في كل شهر شبه عمل المؤمن لله عز وجل في كل وقت بالنخلة التي تؤتي أكلها في أوقات مختلفة وقال الضحاك كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفا يؤكل في جميع الأوقات وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها وقال النحاس وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره وأنشد الأصمعي بيت النابغة:

تناذرها الراقون من سوء سم ها تطلقه حينا وحينا تراجع

فهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت فالإيمان ثابت في قلب المؤمن وعمله وقوله وتسبيحه عال مرتفع في السماء ارتفاع فروع النخلة وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما ينال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلها من الرطب والبسر والبلح والزهو والتمر والطلع وفي رواية عن بن عباس إن الشجرة شجرة في الجنة تثمر في كل وقت ومثلا مفعول به ضرب وكلمة بدل منه والكاف في قوله كشجرة في موضع نصب على الحال من كلمة التقدير كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة الثانية قوله تعالى (تؤتي أكلها كل حين) لما كانت الأشجار تؤتي أكلها كل سنة مرة كان في ذلك بيان حكم الحين ولهذا قلنا من حلف ألا يكلم فلانا حينا ولا يقول كذا حينا إن الحين سنة وقد ورد الحين في موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى هل أتى على الإنسان حين من الدهر الإنسان قيل في التفسير أربعون عاما وحكى عكرمة أن رجلا قال إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حر فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله، فسألني عنها، فقلت: إن من الحين حينا لا يدرك قوله وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين فأرى أن تمسك ما بين صرام النخلة إلى حملها فكأنه أعجبه وهو قول أبي حنيفة في الحين أنه ستة أشهر اتباعا لعكرمة وغيره وقد مضى ما للعلماء في الحين في البقرة مستوفى والحمد لله (ويضرب الله الأمثال) أي الأشباه (للناس لعلهم يتذكرون) ويعتبرون وقد تقدم وغيرهما وعن بن عباس أيضا أنها شجرة لم تخلق على الأرض وقيل هي شجرة الثوم عن بن عباس أيضا وقيل الكمأة أو الطحلبة وقيل الكشوث وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض قال الشاعر:

وهم كشوث فلا أصل ولا ورق

(اجتثت من فوق الأرض) اقتلعت من أصلها قاله ابن عباس ومنه قول لقيط:

هو الجلاء الذي يجتث أصلكم فمن رأى مثل ذا يوما ومن سمعا

وقال المؤرج أخذت جثتها وهي نفسها والجثة شخص الإنسان قاعدا أو قائما وجثه قلعه واجتثه اقتلعه من فوق الأرض أي ليس لها أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض (ما لها من قرار) أي من أصل في الأرض وقيل من ثبات فكذلك الكافر لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه وما يصعد له قول طيب ولا عمل صالح وروى معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة في قوله تعالى (ضرب الله مثلا كلمة طيبة قال لا إله إلا الله كشجرة طيبة) قال: المؤمن أصلها ثابت لا إله إلا الله ثابتة في قلب المؤمن ومثل كلمة خبيثة قال الشرك كشجرة خبيثة قال المشرك اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار أي ليس للمشرك أصل يعمل عليه وقيل يرجع المثل إلى الدعاء إلى الإيمان والدعاء إلى الشرك لأن الكلمة يفهم منها القول والدعاء إلى الشيء.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[1]:

(ألم تر) ألم تخبر يا محمد (كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة) يقول كيف بين الله صفة (كلمة طيبة) وهي لا إله إلا الله (كشجرة طيبة) وهي المؤمن (أصلها ثابت) يقول قلب المؤمن المخلص ثابت بلا إله إلا الله (وفرعها في السماء) يقول بها يقبل عمل المؤمن المخلص (تؤتي أكلها كل حين) يقول يعمل المؤمن المخلص كل حين طاعة لله وخيرا (بإذن ربها) يقول بأمر ربها ويقال صفة كلمة طيبة في النفع والمدحة (كشجرة طيبة) وهي النخلة شجرة طيبة ثمرها كذلك المؤمن أصلها ثابت يقول أصل الشجرة ثابت في الأرض بعروقها فكذلك المؤمن ثابت بالحجة والبرهان وفرعها في السماء يقول أغصان النخلة ترفع نحو السماء وكذلك عمل المؤمن المخلص يوقع إلى السماء تؤتى أكلها كل حين يقول تخرج ثمرها كل ستة أشهر بأذن ربها بإرادة ربها فكذلك المؤمن المخلص يعمل كل حين طاعة وخير بأمر ربه (ويضرب الله الأمثال) هكذا يبين الله الأمثال صفة توحيده (للناس لعلهم يتذكرون)[2] لكي يتعظوا ويرغبوا في توحيده في قول الله جل ذكره (ومثل كلمة خبيثة) وهو الشرك بالله (كشجرة خبيثة) وهو المشرك يقول الشرك مذموم ليس له مدحة كما أن المشرك مذموم ليس له مدحة ويقال

1/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص213.
2/ إبراهيم: 25.

كشجرة خبيثة وهي الحنظلة ليس لها منفعة ولا حلاوة فكذلك الشرك ليس فيه منفعة ولا مدحة (اجتثت) اقتلعت (من فوق الأرض ما لها من قرار) من ثبات على وجه الأرض كذلك المشرك ليس له حجة يأخذ بها كما أن ليس لشجرة الحنظلة أصل تثبت عليه ولا يقبل مع الشرك.

ـ توضيح:

تحدثنا الآيات الكريمات (إبراهيم: 24-26) عن قوة الأمثال القرآنية، وعن مدى تأثير الكلام الموزون المحكم في النفس الإنسانية، فالغرض من تقديم المثل هو تركيز العبارة وتكثيفها لتنشيط الذاكرة وابقائها في حالة توقد واتقاد دائم ومستمر، فالكلمة الطيبة يتجدد سحرها في النفوس مع تجدد ذكراها، مثلها مثل الشجرة المثمرة والتي يفيد الناس من ثمارها، وظلالها وجمالها، وأخشابها ..، ففوائدها تكاد لا تنقطع برغم تقادم العهد والأوان، يقول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يضيع المعروف بين الله والناس

ويقول آخر:

ازرع جميلاً ولو في غير موضعه ما ضاع جميل قط أينما زرع

أما الكلمة الخبيثة فتأثيرها مؤقت، إذ يختفي أثرها النفسي المؤلم ويذول بالاعتذار الذي يمحو ويذيل كل ما في النفس من آلام، وفي كثير من الأحيان لا يبقى أثر الكلمة الخبيثة، مع طول الأوقات وتتالي السنوات، إلا لدى أصحاب النفوس المريضة والتي غشيها الحسد وتراكم عليها الحقد، تلك النفوس التي لم تتعلم السلوى والنسيان، ولم تعرف الصفح والغفران.

سورة النحل الآية:60

(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) النحل: 60.

ـ تفسير السعدي[1]:

قال تعالى: (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) أي المثل الناقص والعيب التام (ولله المثل الأعلى) وهو كل صفة كمال وكل كمال في الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصا بوجه من الوجوه وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة (وهو العزيز) الذي قهر جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات بأسرها (الحكيم) الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يأمر ولا يفعل إلا ما يحمد عليه ويثنى على كماله فيه.

ـ تفسير القرطبي[2]:

قوله تعالى: (للذين لا يؤمنون بالآخرة) أي لهؤلاء الواصفين لله البنات (مثل السوء) أي صفة السوء من الجهل والكفر وقيل هو وصفهم الله تعالى بالصاحبة والولد وقيل أي العذاب والنار (ولله المثل الأعلى) أي الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد قاله قتادة وقيل أي الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر ومجاز وقال ابن عباس: مثل السوء النار والمثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله وقيل ليس كمثله شيء وقيل ولله المثل الأعلى كقوله (الله نور السماوات والأرض مثل نوره)[3] فإن قيل كيف أضاف المثل هنا إلى نفسه، وقد قال: فلا تضربوا لله الأمثال فالجواب أن قوله فلا تضربوا لله الأمثال أي الأمثال التي توجب الأشباه والنقائص أي لا تضربوا لله مثلا يقتضي نقصا وتشبيها بالخلق والمثل الأعلى وصفه بما لا

1/ تفسير السعدي ج1/ص443.

2/ تفسير القرطبي ج10/ص119.

3/ النور:35.

شبيه له ولا نظير جل وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا (وهو العزيز الحكيم) تقدم معناه.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[1]:

(للذين لا يؤمنون بالآخرة) بالبعث بعد الموت (مثل السوء) يعني النار (ولله المثل الأعلى) الصفة العليا الألوهية والربوبية بلا ولد ولا شريك (وهو العزيز) بالنقمة لمن لا يؤمن به (الحكيم) أمر أن لا يعبد غيره.

ـ توضيح:

تعطينا الآية الكريمة (النحل:60)، نموذجًا متفردًا، يمكننا أن نشهده ونستشعر وجوده في حياتنا، ونراه في كل من لا يؤمن باليوم الآخر وما فيه من ثواب للمؤمنين وعقاب للكافرين، فالمؤمنون يحرصون على تطبيق المنهج الرباني، وبالتالي سيحافظون على النموذج المثالي للفرد السوي وكذلك على بناء المجتمع السليم، أما الذين لم يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر، فلن يكون لهم هدف في الحياة سوى اللهو والعبث، مما سينعكس على سلوك الفرد والجماعة الذين يعيشون دون ضابط شرعي ولا رابط سماوي، فيتفكك المجتمع وتضيع ضوابط الأخلاق والقيم الإنسانية.

1/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص226.

سورة النحل الآية: 75 ـ 76

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) النحل: 75-76.

ـ تفسير ابن كثير[1] :

قال العوفي، عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر والمرزوق الرزق الحسن (فهو ينفق منه سرا وجهرا)، هو المؤمن وقال بن أبي نجيح عن مجاهد هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى فهل يستوي هذا وهذا ولما كان الفرق بينهما ظاهرا واضحا بينا لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: (الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون)، قال مجاهد وهذا أيضا المراد به الوثن والحق تعالى يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية فلا مقال ولا فعال وهو مع هذا (كل) أي عيال وكلفة (على مولاه أينما يوجهه) أي يبعثه (لا يأت بخير) ولا ينجح مسعاه (هل يستوي) من هذه صفاته (ومن يأمر بالعدل) أي بالقسط فمقاله حق وفعاله مستقيمة (وهو على صراط مستقيم) وقيل الأبكم مولى لعثمان وبهذا قال السدي وقتادة وعطاء الخرساني واختار هذا القول بن جرير، وقال العوفي عن ابن عباس هو مثل للكافر والمؤمن أيضا كما تقدم وقال بن جرير حدثنا الحسن بن الصباح البزار حدثنا يحيى بن إسحاق السالحيني حدثنا حماد حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن إبراهيم عن عكرمة عن يعلى بن أمية عن بن عباس في قوله (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء) قال نزلت في رجل من قريش وعبده يعني قوله (عبدا مملوكا) الآية، وفي قوله (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم) إلى قوله (وهو على صراط مستقيم) قال هو عثمان بن عفان قال والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير قال هو مولى لعثمان بن عفان كان

1/ تفسير ابن كثير ج2/ص579.

عثمان ينفق عليه ويكلفه ويكفيه المؤونة وكان الآخر يكره الإسلام ويا أباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما.

ـ تفسير السعدي[1]:

(ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون وضرب الله مثلا رجلين أحدهمآ أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله والحال أنهم لا يملكون لهم رزقا من السموات والأرض فلا ينزلون مطرا ولا رزقا ولا ينبتون من نبات الأرض شيئا ولا يملكون مثقال ذرة في السموات والأرض ولا يستطيعون لو أرادوا فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون فهذه صفة آلهتهم كيف جعلوها مع الله وشبهوها بمالك الأرض والسموات الذي له الملك كله والحمد كله والقوة كلها ولهذا قال: (فلا تضربوا لله الأمثال) المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون)[2] فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه أحدهما عبد مملوك أي رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئا والثاني حر غني قد رزقه الله منه رزقا حسنا من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوي هذا وذاك لا يستويان مع أنهما مخلوقان وغير محال استواؤهما فإذا كانا لا يستويان فكيف يستوي المخلوق والعبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعه بل هو فقير من جميع الوجوه بالرب المالك لجميع الممالك القادر على كل شيء ولهذا حمد نفسه واختص بالحمد بأنواعه فقال: (الحمد لله) فكأنه قيل إذا كان الأمر كذلك فلم سوى المشركون آلهتهم بالله قال: (بل أكثرهم لا يعلمون) فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم والمثل الثاني مثل (رجلين أحدهما أبكم) لا يسمع ولا ينطق (لا يقدر على شيء) لا قليل ولا كثير (وهو كل على مولاه) أي يخدمه مولاه ولا يستطيع هو

1/ تفسير السعدي ج1/ص444-445.
2/ النحل:74.

أن يخدم نفسه فهو ناقص من كل وجه (هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) فأقواله عدل وأفعاله مستقيمة فكما أنهما لا يستويان فلا يستوي من عبد من دون الله وهو لا يقدر على شيء من مصالحه فلولا قيام الله بها لم يستطع شيئا منها ولا يكون كفوا ولا ندا لمن لا يقول إلا الحق ولا يفعل إلا ما يحمد عليه.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[1]:

(ضرب الله مثلا عبدا مملوكا) بين الله صفة عبد مملوك (لا يقدر على شيء) من النفقة والإحسان وهو مثل الكافر لا يجى ء منه خير (ومن رزقناه) أعطيناه (منا رزقا حسنا) مالا كثيرا (فهو ينفق منه سرا) فيما بينه وبين الله (وجهرا) فيما بينه وبين الناس في سبيل الله وهذا مثل المؤمن المخلص (هل يستوون) في الثواب والطاعة (الحمد لله) الشكر لله والوحدانية لله (بل أكثرهم) كلهم (لا يعلمون) أمثال القرآن ويقال نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان ورجل من العرب يقال له أبو العيص بن أمية ثم ضرب مثله ومثل الأصنام فقال: (وضرب الله مثلا) بين الله صفة (رجلين أحدهما أبكم) أخرس (لا يقدر على شيء) من الكلام وهو الصنم (وهو كل) ثقل (على مولاه) على وليه وقرابته عيال على عائلة (أينما يوجهه) ويدعوه من شرق أو عرب (لا يأت بخير) لا يجيب من يدعوه بخير وهذا مثل الصنم (هل يستوي) في النفع ودفع الضر (هو) يعني الصنم (ومن يأمر بالعدل) بالتوحيد (وهو على صراط مستقيم) يدعو إلى طريق مستقيم وهو الله.

ـ توضيح:

إن الآيتين الكريمتين (النحل:75-76) تقدمان مقارنة بين شخصيتين مختلفتين من حيث السلوك المميز لكليهما، فهناك الشخص المعتمد على سواه، في كل شئ، ولا يملك من أمر نفسه شيئًا، أي أنه لا يحسن التصرف في شأن من شئونه ناهيك بشئون الآخرين، وفرد آخر حر مالك لزمام أمره ويدبر شؤونه بنفسه دون أن يعتمد على أحد، فسلوك الأول، عند مقارنته بسلوك الثاني، نجد أنه لا يحسن القيام بواجبه، وبذلك يتسبب لنفسه ولمجتمعه في كثير من العنت البدني والضيق النفسي، بينما يتمتع الثاني بسلوك سوي ويحس القيام

1/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص227-228.

بجميع واجباته، وهو نافع لنفسه ومفيد للمجتمع الذي يعيش فيه. وبالمحصلة نجد أن كفة الميزان، عند إجراء المقارنة، تميل لصالح الذين يتمتعون بالقدرة على ادارة شؤونهم الخاصة ويتحملون مسئولية أنفسهم، وليس هذا فحسب، بل يعملون على اصلاح البيئة الاجتماعية المحيطة بهم.

سورة النحل الآية:112

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) النحل:112.

ـ تفسير السعدي[1]:

(وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) (ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون)[2] وهذه القرية هي مكة المشرفة التي كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إن أحدهم يجد فيها قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم والنعرة العربية فحصل لها في مكة من الأمن التام ما لم يحصل في سواها وكذلك الرزق الواسع كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر لكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه يدعوهم إلى أكمل الأمور وينهاهم عن الأمور السيئة فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد والخوف الذي هو ضد الأمن وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم.

ـ تفسير القرطبي[3]:

قوله تعالى: (وضرب الله مثلا قرية) هذا متصل بذكر المشركين وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دعا على مشركي قريش وقال: {اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف} فابتلوا بالقحط حتى اكلوا العظام ووجه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما ففرق فيهم (كانت آمنة مطمئنة) لا يهاج أهلها (يأتيها رزقها رغدا من

1/ تفسير السعدي ج1/ص451.
2/ النحل: 113.
3/ تفسير القرطبي ج10/ص194.

كل مكان) من البر والبحر نظيره (يجبى إليه ثمرات كل شيء)[1] الآية، (فكفرت بأنعم الله) الأنعم جمع النعمة كالأشد جمع الشدة وقيل جمع نعمى مثل بؤسى وأبؤس وهذا الكفران تكذيب بمحمد، صلى الله عليه وسلم، (فأذاقها الله) أي أذاق أهلها (لباس الجوع والخوف) سماه لباسا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس (بما كانوا يصنعون) أي من الكفر والمعاصي وقرأه حفص بن غياث ونصر بن عاصم وبن أبي إسحاق والحسن وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث وعبيد وعباس والخوف نصبا بإيقاع أذاقها عليه عطفا على لباس الجوع وأذاقها الخوف وهو بعث النبي، صلى الله عليه وسلم، سراياه التي كانت تطيف بهم وأصل الذوق بالفم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء وضرب مكة مثلا لغيرها من البلاد أي أنه مع جوار بيت الله وعمارة مسجده لما كفر أهلها أصابهم القحط فكيف بغيرها من القرى وقد قيل إنها المدينة آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كفرت بأنعم الله لقتل عثمان بن عفان وماحدث بها بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الفتن وهذا قول عائشة وحفصة زوجي النبي، صلى الله عليه وسلم، وقيل إنه إنه مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[2]:

(وضرب الله مثلا قرية) بين الله تعالى صفة أهل مكة أبي جهل والوليد وأصحابهما (كانت آمنة) كان أهلها آمنين من العدو والقتال والجوع والسبي (مطمئنة) مقيما أهلها (يأتيها رزقها) يحمل إليها من الثمرات (رغدا) موسعا (من كل مكان) ناحية أرض يحمل إليها (فكفرت بأنعم الله) فكفر أهلها بمحمد، صلى الله عليه وسلم، والقرآن (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) فعاقب الله أهلها بالجوع سبع سنين والخوف من خوف حرب محمد، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه (بما كانوا يصنعون) يقولون ويعملون بمحمد، صلى الله عليه وسلم، من الجفاء.

1/ القصص:57.

2/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص231.

ـ توضيح:

تحدثنا هذه الآية الكريمة (النحل: 112) عن نعمة الشعور بالأمن وطمأنينة النفس، ومدي تأثير ذلك في تلاحم النسيج الاجتماعي وتكاتفه وتعاضده، بينما يمثل الشعور بالخوف عاملاً أساسيًا في اضطراب حياة الناس، حيث يحول بينهم وبين الاستقرار النفسي والمادي، فهلا أدركنا المعنى المراد من المثل والقيمة التي يمثلها الشعور بالأمان، وقد من الله تعالى على أهل مكة في أكثر من موضع بنعمة الأمن والأمان في الحرم:

(أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آَمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[1].

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آَمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)[2].

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)[3].

1/ القصص:57.
2/ العنكبوت:67.
3/ قريش:4.

سورة الإسراء الآية: 89

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) الاسراء: 89.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

وقوله (ولقد صرفنا للناس) الآية، أي بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه ومع هذا (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) أي جحودا للحق وردا للصواب.

ـ تفسير السعدي[2]:

يقول تعالى: (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أي نوعنا فيه المواعظ والأمثال وثنينا فيه المعاني التي يضطر إليها العباد لأجل أن يتذكروا ويتقوا فلم يتذكر إلا القليل منهم الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة وأعانهم الله بتوفيقه وأما أكثر الناس (فأبوا إلا كفورا) لهذه النعمة التي هي أكبر من جميع النعم.

ـ تفسير القرطبي[3]:

قوله تعالى: (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أي وجهنا القول فيه بكل مثل يجب به الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي وأقاصيص الأولين والجنة والنار والقيامة (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) يريد أهل مكة بين لهم الحق وفتح لهم وأمهلهم حتى تبين لهم أنه الحق فأبوا إلا الكفر وقت تبين الحق قال المهدوي ولا حجة للقدري في قولهم لا يقال أبى إلا لمن أبى فعل ما هو قادر عليه لأن الكافر وإن كان غير قادر

1/ تفسير ابن كثير ج3/ص63.
2/ تفسير السعدي ج1/ص466.
3/ تفسير القرطبي ج10/ص327.

على الإيمان بحكم الله عليه بالإعراض عنه وطبعه على قلبه فقد كان قادرا وقت الفسحة والمهلة على طلب الحق وتمييزه من الباطل.

ـ توضيح:

تحدثنا الآية الكريمة (الإسراء:89) عن قسوة النفس الإنسانية وعتوها ونفورها من التقيد بمنهج الحق، بالرغم من كثرة الأمثال المقدمة والمطروحة للناس جميعًا بلا استثناء، سواء أكانت، الأمثال، مأخوذة من آي الذكر الحكيم، أو مما يمر علينا أثناء حياتنا.

سورة الكهف الآية:32

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا) الكهف: 32.

ـ تفسير السعدي[1]:

(واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا) ...، يقول تعالى، لنبيه، صلى الله عليه وسلم، اضرب للناس مثل هذين الرجلين الشاكر لنعمة الله والكافر لها وما صدر من كل منهما من الأقوال والأفعال وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل والثواب ليعتبروا بحالهما ويتعظوا بما حصل عليهما وليس معرفة أعيان الرجلين وفي أي زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط والتعرض لما سوى ذلك من التكلف فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة جعل الله له جنتين أي بساتين حسنين من أعناب (وحففناهما بنخل) أي في هاتين الجنتين من كل الثمرات وخصوصا أشرف الأشجار العنب والنخل فالعنب وسطها والنخل قد حف بذلك ودار به فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح التي تكمل لها الثمار وتنضج وتتجوهر ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعا.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[2]:

(واضرب لهم مثلا) بين لأهل مكة صفة (رجلين) أخوين في بني إسرائيل أحدهما مؤمن وهو يهوذا والآخر كافر وهو أبو فطروس (جعلنا لأحدهما) الكافر (جنتين) بساتين (من أعناب) من كروم (وحففناهما بنخل) أحطناهما بنخل (وجعلنا بينهما) بين البساتين (زرعا) مزرعا.

1/ تفسير السعدي ج1/ص476.

2/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص247.

ـ البداية والنهاية[1]:

قال الله تعالى، في سورة الكهف بعد قصة أهل الكهف، (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا) ...، قال بعض الناس هذا مثل مضروب ولا يلزم أن يكون واقعا والجمهور أنه أمر قد وقع وقوله (واضرب لهم مثلا) يعني لكفار قريش في عدم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء وازدرائهم بهم وافتخارهم عليهم كما قال تعالى (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون)[2] ...، والمشهور أن هذين كانا رجلين مصطحبين وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرا ويقال إنه كان لكل منهما مال فانفق المؤمن ماله في طاعة الله ومرضاته ابتغاء وجهه وأما الكافر فإنه اتخذ له بساتين وهما الجنتان المذكورتان في الآية على الصفة والنعت المذكور فيهما أعناب ونخيل تحف تلك الأعناب والزروع في ذلك والأنهار سارحة ههنا وههنا للسقي والتنزه وقد استوثقت فيهما الثمار واضطربت فيهما الأنهار وابتهجت الزروع والثمار.

ـ توضيح:

ترشدنا هذه الآية الكريمة (الكهف:32) إلى التأمل في سلوك الرجلين، فلا يمنعنا الحرمان من النظر إلى نعم الله علينا وأن نتوجه له بالشكر والعرفان، وكذلك يجب ألا يبطرنا النعيم الذي نعيش فيه فننسى القدرة الإلهية، حتى لا تتبدل حياتنا من النعيم إلى الضنك والضيق.

1/ البداية والنهاية ج2/ص117-:118.
2/ يس: 13.

سورة الكهف الآية:45

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) الكهف:45.

ـ تفسير السعدي[1]:

(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كمآء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا) ...، يقول تعالى لنبيه، صلى الله عليه وسلم، أصلا ولمن قام بوراثته بعده تبعا اضرب للناس مثل الحياة الدنيا ليتصوروها حق التصور ويعرفوا ظاهرها وباطنها فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار وأن مثل هذه الحياة الدنيا كمثل المطر ينزل على الأرض فيختلط نباتها أو تنبت من كل زوج بهيج فبينا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين وتفرح المتفرجين وتأخذ بعيون الغافلين إذ أصبحت هشيما تذروه الرياح فذهب ذلك النبات الناضر والزهر الزاهر والمنظر البهي فأصبحت الأرض غبراء ترابا قد انحرف عنها النظر وصدف عنها البصر وأوحشت القلب كذلك هذه الدنيا بينما صاحبها قد أعجب بشبابه وفاق فيها على أقرانه وأترابه وحصل درهمها ودينارها واقتطف من لذته أزهارها وخاض في الشهوات في جميع أوقاته وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه إذ أصابه الموت أو التلف لماله فذهب عنه سروره وزالت لذته وحبوره واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته وماله وانفرد بصالح أو سيى ء أعماله هنالك يعض الظالم على يديه حين يعلم حقيقة ما هو عليه ويتمنى العود إلى الدنيا لا ليستكمل الشهوات بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات بالتوبة والأعمال الصالحات فالعاقل الجازم الموفق يعرض على نفسه هذه الحالة ويقول لنفسه قدري أنك قد مت ولا بد أن تموتي فأي الحالتين تختارين الاغترار بزخرف هذه الدار والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة أم العمل لدار أكلها دائم وظلها ظليل.

1/ تفسير السعدي ج1/ص478.

ـ تفسير القرطبي[1]:

قوله تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا) أي صف لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين مثل الحياة الدنيا أي شبهها (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به) أي بالماء (نبات الأرض) حتى استوى وقيل إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر وقد تقدم هذا المعنى في يونس مبينا وقالت الحكماء إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع كذلك الدنيا لا تبقى على واحد ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعا منبتا وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر وفي حديث النبي، صلى الله عليه وسلم، قال له رجل يا رسول الله إني أريد ان أكون من الفائزين قال {ذر الدنيا وخذ منها كالماء الراكد فإن القليل منها يكفي والكثير منها يطغي}. وفي صحيح مسلم عن النبي، صلى الله عليه وسلم، {قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه} (فأصبح) أي النبات (هشيما) أي متكسرا من اليبس متفتتا يعني بانقطاع الماء عنه فحذف ذلك إيجازا لدلالة الكلام عليه والهشم كسر الشيء اليابس والهشيم من النبات اليابس المتكسر والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء ومنه قولهم ما فلان إلا هشيمة كرم إذا كان سمحا ورجل هشيم ضعيف البدن وتهشم عليه فلان إذا تعطف واهتشم ما في ضرع الناقة إذا احتلبه ويقال هشم الثريد ومنه سمى هاشم بن عبد مناف واسمه عمرو وفيه يقول عبد الله بن الزبعري عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف وكان سبب ذلك أن قريشا أصابتهم سنون ذهبن بالأموال فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير فخبز له فحمله في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة وهشم ذلك الخبز يعني كسره وثرده ونحر تلك الإبل ثم أمر الطهاة فطبخوا ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة فكان ذلك أول الحباء بعد السنة التي أصابتهم فسمى بذلك هاشما (تذروه الرياح) أي تفرقه قاله أبو عبيدة بن قتيبة تنسفه بن كيسان تذهب به وتجيء بن عباس تديره والمعنى متقارب وقرأ طلحة بن مصرف تذريه الريح قال الكسائي وفي قراءة عبد الله

1/ تفسير القرطبي ج10/ص412-413.

تذريه يقال ذرته الريح تذروه ذروا وتذريه ذريا وأذرته تذريه إذراء إذا طارت به وحكى الفراء أذريت الرجل عن فرسه أي قلبته وأنشد سيبويه والفراء فقلت له صوب ولا تجهدنه فيذرك من أخرى القطاة فتزلق قوله تعالى (وكان الله على كل شيء مقتدرا) من الإنشاء والإفناء والإحياء سبحانه.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[1]:

(واضرب لهم) بين لأهل مكة (مثل الحياة الدنيا) في بقائها وفنائها (كماء) كمطر (أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) فاختلط الماء بنبات الأرض (فأصبح هشيما) فصار يابسا (تذروه الرياح) ذرته الريح ولم يبق منه شيء كذلك الدنيا تذهب ولا يبقى منها شيء كما لا يبقى من الهشيم شيء (وكان الله على كل شيء) من فناء الدنيا وبقاء الاخرة (مقتدرا) قادرا.

ـ توضيح:

يقدم لنا القرآن العظيم، في هذه الآية الكريمة (الكهف:45)، مثلاً ونموذجًا حيًا ينطق بلسان مبين، ليرشدنا إلى أن هذه الدنيا، بما فيها من زينة وزخرف، هي أشبه بورق الشجر الجاف الذي تزروه الرياح، أي لا قيمة لها، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)[2].

لقد جبلت النفوس على حب المتع والشهوات الدنيوية بكل أشكالها وأنواعها، من هذا الباب ركزت الآية، السابقة، على التذكير بأن متعة الدنيا قليلة وزائلة، بينما نعيم الآخرة دائم وبلا انقطاع، ولم تهمل الآية تذكير غير المؤمنين بما ينتظرهم من عذاب لعلهم يثوبوا إلى رشدهم.

1/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص248.
2/ الحديد:20.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

يقول تعالى، موهنا أمر الحياة الدنيا ومحقرا لها (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد) أي إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا كما قال تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب)[2]، ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال (كمثل غيث) وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس كما قال تعالى (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) وقوله تعالى (أعجب الكفار نباته) أي يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها (ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما) أي يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرا بعد ما كان خضرا نضرا ثم يكون بعد ذلك كله حطاما أي يصير يبسا متحطما هكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة ثم تكتهل ثم تكون عجوزا شوهاء والإنسان يكون كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضا طريا لين الأعطاف بهي المنظر ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ثم يكبر فيصير شيخا كبيرا ضعيف القوى قليل الحركة يعجزه الشيء اليسير كما قال تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير)[3] ولما كان هذا المثل دالا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لامحالة وأن الآخرة كائنة لامحالة حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال (وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) أي وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا إما عذاب شديد وإما مغفرة من الله ورضوان وقوله تعالى (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) أي هي متاع فان غار لمن ركن إليه فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة قال بن جرير ...، عن أبي هريرة قال قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، {موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرؤوا (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)}، ...، وقال الإمام أحمد ...،

1/ تفسير ابن كثير ج4/ص313.

2/ الكهف:14.

3/ الروم:54.

عن عبد الله قال قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، {للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك} ....، ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان وإذا كان الأمر كذلك فلهذا حثه الله تعالى على المبادرة إلى الخيرات من فعل الطاعات وترك المحرمات التي تكفر عنه الذنوب والزلات وتحصل له الثواب والدرجات.

ـ تفسير السعدي[1]:

(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيآ إلا متاع الغرور) ....، يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه ويبين غايتها وغاية أهلها بأنها لعب ولهو تلعب بها الأبدان وتلهو بها القلوب وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات عمرهم بلهو قلوبهم وغفلتهم عن ذكر الله وعما أمامهم من الوعد والوعيد تراهم قد اتخذوا دينهم لعبا ولهوا بخلاف أهل اليقظة وعمال الآخرة فإن قلوبهم معمورة بذكر الله ومعرفته ومحبته وقد شغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله من النفع القاصر والمتعدي وقوله (وزينة) أي تزين في اللباس والطعام والشراب والمراكب والدور والقصور والجاه وغير ذلك (وتفاخر بينكم) أي كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر وأن يكون هو الغالب في أمورها والذي له الشهرة في أحوالها (وتكاثر في الأموال والأولاد) أي كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد وهذا مصداقه وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها فجعلها معبرا ولم يجعلها مستقرا فنافس فيما يقربه إلى الله واتخذ الوسائل التي توصله إلى دار كرامته وإذا رأى من يكاثره وينافسه في الأموال والأولاد نافسه بالأعمال الصالحة ثم ضرب للدنيا مثلا بغيث نزل على الأرض فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأعجب نباته الكفار الذين قصروا نظرهم وهممهم على الدنيا جاءها من أمر الله ما أتلفها فهاجت ويبست وعادت إلى حالها الأولى كأنه لم ينبت فيها خضراء ولا رؤي لها مرأى أنيق كذلك الدنيا بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة مهما أراد من مطالبها حصل ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة إذ أصابها القدر فأذهبها من

1/ تفسير السعدي ج1/ص841.

يده وأزال تسلطه عليها أو ذهب به عنها فرحل منها صفر اليدين ولم يتزود منها سوى الكفن فتبا لمن أضحت هي غاية أمنيته ولها عمله وسعيه وأما العمل للآخرة فهو الذي ينفع ويدخر لصاحبه ويصحب العبد على الأبد ولهذا قال تعالى وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان أي حال الآخرة لا يخلو من هذين الأمرين إما العذاب الشديد في نار جهنم وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه فتجرأ على معاصي الله وكذب بآيات الله وكفر بأنعم الله وإما مغفرة من الله للسيئات وإزالة العقوبات ورضوان من الله يحل من أحله عليه دار الرضوان لمن عرف الدنيا وسعى للآخرة سعيها فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ولهذا قال (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) أي إلا متاع يتمتع به وينتفع به ويستدفع به الحاجات لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرهم بالله الغرور ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة من التوبة النصوح والاستغفار النافع والبعد عن الذنوب ومظانها والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح والحرص على ما يرضي الله على الدوام من الإحسان في عبادة الخالق والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك.

سورة الكهف الآية54

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآَنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) الكهف:54.

ـ تفسير القرطبي[1]:

قوله تعالى (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل) يحتمل وجهين أحدهما ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية الثاني ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية وقد تقدم في (سبحان)، فهو على الوجه الأول زجر وعلى الثاني بيان (وكان الانسان أكثر شيء جدلا) أي جدالا ومجادلة والمراد به النضر بن الحرث وجداله في القرآن وقيل الآية في أبي بن خلف وقال الزجاج أي الكافر أكثر شيء جدلا والدليل على أنه أراد الكافر قوله (ويجادل الذين كفروا بالباطل)[2]، وروى أنس أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال {يؤتى بالرجل يوم القيامة من الكفار فيقول الله له ما صنعت فيما أرسلت إليك فيقول رب آمنت بك وصدقت برسلك وعملت بكتابك فيقول الله له هذه صحيفتك ليس فيها شيء من ذلك فيقول يارب إني لا أقبل ما في هذه الصحيفة فيقال له هذه الملائكة الحفظة يشهدون عليك فيقول ولا أقبلهم يارب وكيف أقبلهم ولا هم من عندي ولا من جهتي فيقول الله تعالى هذا اللوح المحفوظ أم الكتاب قد شهد بذلك فقال يارب ألم تجرني من الظلم قال بلى فقال يارب لا أقبل إلا شاهدا علي من نفسي فيقول الله تعالى الآن نبعث عليك شاهدا من نفسك فيتفكر من ذا الذي يشهد عليه من نفسه فيختم على فيه ثم تنطق جوارحه بالشرك ثم يخلى بينه وبين الكلام فيدخل النار وإن بعضه ليلعن بعضا يقول لأعضائه لعنكن الله فعنكن كنت أناضل فتقول أعضاؤه لعنك الله أفتعلم أن الله تعالى يكتم حديثا} فذلك قوله تعالى (وكان الانسان أكثر شيء جدلا).

ـ توضيح:

تحدثنا الآية الكريمة (الكهف:54) عن صعوبة إقناع النفس البشرية بمصداقية الرسل، بالرغم مما قدموه لها من نماذج وأمثلة تؤكد حقيقة وصدق أصحاب الرسالات،

1/ تفسير القرطبي ج11/ص5.
2/ الكهف:56.

ومع كل تلك البراهين والدلائل إلا أن النفس الإنسانية متمسكة بالجدل الذي لا طائل من ورائه، ولا يريد الإنسان أن يتبع السلوك السليم والنهج القويم، كما تريد الآية الكريمة أن تلفت الأنظار وتنبه العقول إلى كثرة الأمثال التي جاء خبرها وتوارد ذكرها في آي القرآن العظيم، من أجل اتسجلاء المفاهيم وتوضيح الحقائق للإنسان، ولكنه، مع كل ما أوتي من دلائل وبراهين، يرفض جميع الحجج ويتمسك بالجدل العقيم الذي لا طائل منه، والشاهد على كثرة جداله ومجادلته قوله تعالى:

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)[1].

مع أن الإجابة واضحة ولا تكاد تخفى على أحد، بل وفي غاية البساطة، ولا تحتاج إلى برهان أو دليل يدعمها، ولكن الإنسان يتساءل، بكل كبرياء، عمن سيحي العظام المتآكلة، لتأتيه الإجابة، من لدن العلي القدير، فتلقمه حجرًا، فيقول له تعالى:

(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)[2].

ويقول تعالى، تأكيدًا لقوله السابق:

(أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا)[3].

فأي برهان وأي دليل، بعد ذلك، يريده أولئك الذين تتشدق ألسنتهم بالكفر والإلحاد، لا شك في أنهم هم المعنيون بقوله تعالى:

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[4].

إن الأمثال التي يضربها لنا القرآن العظيم تأتي مطابقة لواقع الحال، وتحمل الحجة الدامغة والدليل القاطع على صدق تنبئه بما تنضح به قلوب المكذبين بالرسل وما أخبروا به من غيب، ولكن، برغم كل ذلك، فإن الشئ المؤكد، والذي لا ريب فيه ولا مراء، هو أنه مهما كان المثل المضروب والنموذج المطروح شاهدًا ومثالاً حيًا على الحقيقة التي جاء بها الرسل،

1/ يس:78.
2/ يس: 79
3/ مريم: 67.
4/ المطففين:14.

فإن كثير من الناس يسعون بكل ما لديهم من حجج، باطلة، إلى العمل على طمس الحقيقة وإخفائها مهما تكاثرت الآيات الدالة عليها. يقول تعالى:

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآَنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآَيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ)[1].

وفي الآية التالية دلالة، بينة،على ما تخفيه صدور غير المؤمنين من الخصومة والعناد الشديد، فهم لا يملكون إلا الجدل لا أكثر ولا أقل، يقول تعالى:

(وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ)[2].

بل لجوا في كفرهم وخصومتهم، يقول تعالى:

(يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)[3].

1/ الروم:58.
2/ الزخرف: 57-59.
3/ الأنفال:6.

سورة الحج الآية:73

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) الحج:73.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

يقول تعالى منبها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها (يا أيها الناس ضرب مثل) أي لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به (فاستمعوا له) أي أنصتوا وتفهموا (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك ... عن أبي هريرة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، {قال، قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة} ثم قال تعالى، أيضا، (وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه) أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والإنتصار منه لو سلبها شيئا من الذي عليها من الطيب ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال (ضعف الطالب والمطلوب) قال ابن عباس الطالب الصنم والمطلوب الذباب وأختاره بن جرير وهو ظاهر السياق وقال السدي وغيره الطالب العابد والمطلوب الصنم.

ـ تفسير السعدي[2]:

(يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) ....، هذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان وبيان نقصان عقول من عبدها وضعف الجميع فقال: (يا أيها الناس) هذا خطاب للمؤمنين والكفار المؤمنون يزدادون علما وبصيرة والكافرون تقوم

1/ تفسير القرطبي ج11/ص5.
2/ تفسير السعدي ج1/ص546.

عليهم الحجة (ضرب مثل فاستمعوا له) أي ألقوا إليه أسماعكم وافهموا ما احتوى عليه ولا يصادف منكم قلوبا لاهية وأسماعا معرضة بل ألقوا إليه القلوب والأسماع وهو هذا (إن الذين تدعون من دون الله) شمل ما يدعى من دون الله لن يخلقوا ذبابا الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف فما فوقه من باب أولى (ولو اجتمعوا له) بل أبلغ من ذلك (وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه) وهذا غاية ما يصير من العجز (ضعف الطالب) الذي هو المعبود من دون الله (والمطلوب) الذي هو الذباب فكل منهما ضعيف وأضعف منهما من يتعلقون بهذا الضعيف وينزلونه منزلة رب العالمين.

ـ توضيح:

إذا نظرنا إلى المثل المضروب في الآية الكريمة (الحج:73)، لوجدنا فيه صورة تدعو إلى الضحك والاستهذاء من أولئك الذين يعكفون على عبادة الأصنام، وهي أضعف من أن تسترد شيئًا سلبه منها الذباب، والشئ المثير للتعجب هو أن الذباب، نفسه، لا حول له ولا قوة. لاشك في أن القرآن العظيم، قد رسم التعبير الحقيقي على لوجوه أولئك الناس حين سمعوا هذه الآية الكريمة وعرفوا ما حملته في ثناياها من اخبار بفجاجة عقولهم وضحالة تفكيرهم.

سورة العنكبوت الآية: 41

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) العنكبوت:41.

ـ تفسير السعدي[1]:

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أوليآء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلهآ إلا العالمون) هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره يقصد به التعزز والتقوي والنفع وأن الأمر بخلاف مقصوده فإن مثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتا يقيها من الحر والبرد والآفات (وإن أوهن البيوت) أي أضعفها وأوهاها (لبيت العنكبوت) فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة وبيتها من أضعف البيوت فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفا كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع الوجوه وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم ازدادوا ضعفا إلى ضعفهم ووهنا إلى وهنهم فإن اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم وألقوها عليهم تخلوا هم عنها على أن أولئك سيقومون بها فخذلوهم فلم يحصلوا منهم على طائل ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم حالهم وحال من اتخذوهم لم يتخذوهم ولتبرؤوا منهم ولتولوا الرب القادر الرحيم الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه كفاه مؤونة دينه ودنياه وازداد قوة إلى قوته في قلبه وبدنه وحاله وأعماله ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين.

ـ تفسير القرطبي[2]:

قوله تعالى: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت) قال الأخفش: كمثل العنكبوت وقف تام ثم قص قصتها فقال (اتخذت بيتا)، قال ابن الأنباري وهذا غلط لأن اتخذت بيتا صلة للعنكبوت كأنه قال كمثل التي اتخذت بيتا فلا يحسن الوقف على

1/ تفسير السعدي ج1/ص631.

2/ تفسير القرطبي ج13/ص345.

الصلة دون الموصول وهو بمنزلة قوله كمثل الحمار يحمل أسفارا فيحمل صلة للحمار ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل قال الفراء هو مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرا ولا بردا ولا يحسن الوقف على العنكبوت لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء فشبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به (وإن أوهن البيوت) أي أضعف البيوت (لبيت العنكبوت) قال الضحاك ضرب مثلا لضعف آلهتهم ووهنها فشبهها ببيت العنكبوت (لو كانوا يعلمون) لو متعلقة ببيت العنكبوت أي لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئا وأن هذا مثلهم لما عبدوها لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف وقال النحاة إن تاء العنكبوت في آخرها مزيدة لأنها تسقط في التصغير والجمع وهي مؤنثة وحكى الفراء تذكيرها.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[1]:

(كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) مسكنا (وإن أوهن البيوت) أضعف البيوت (لبيت العنكبوت) يقول إن بيت العنكبوت لا يقيها من حر ولا برد كذلك الآلهة لا تنفع من عبدها فى الدنيا ولا فى الآخرة (لو كانوا يعلمون) هذا المثل ولكن لا يعلمون ولا يصدقون بذلك.

ـ توضيح:

تشير هذه الآية الكريمة (العنكبوت: 41)، إلى الخوف الناجم عن الضعف العقلي والوهن الذهني، بل والخواء الفكري الذي يعيش فيه أولئك الذين سلكوا طريقًا منحرفًا إلى الله، بحثًا عن الأمن ولكنهم، في الحقيقة، لا يشعرون بأي قدر من الطمأنينة أو السكينة النفسية.

1/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: ج1/ص335.

سورة الروم الآية: 27-28

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) الروم:27-28.

ـ تفسير السعدي[1]:

(وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) أي ومن آياته العظيمة أن قامت السموات والأرض واستقرتا وثبتتا بأمره فلم تتزلزلا ولم تسقط السماء على الأرض فقدرته العظيمة التي بها أمسك السموات والأرض أن تزولا يقدر بها على أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض إذا هم يخرجون (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس)[2] (وله من في السموات والأرض)[3] لكل خلقه ومماليكه والمتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض وكلهم قانتون لجلاله خاضعون لكماله (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو) أي إعادة الخلق بعد موتهم (أهون عليه) من ابتداء خلقهم وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول فإذا كان قادرا على الابتداء الذي تقرون به كانت قدرته على الإعادة التي هي أهون أولى وأولى ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به يعتبر المعتبرون ويتذكر المؤمنون ويستبصر المهتدون ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير فقال (وله المثل الأعلى في السموات والأرض) وهو كل صفة كمال والكمال في تلك الصفة والمحبة والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين والذكر الجليل والعبادة منهم فالمثل الأعلى هو وصفه الأعلى وما ترتب عليه ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى فيقولون كل صفة كمال في المخلوقات فخالقها أحق بالاتصاف بها على وجه لا يشاركه فيها أحد وكل نقص في المخلوق ينزه عنه فتنزيه الخالق عنه من باب أولى وأحرى (وهو العزيز

1/ تفسير السعدي ج1/ص640.
2/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص335.
3/ الأنبياء: 19.

الحكيم) أي له العزة الكاملة والحكمة الواسعة فبعزته أوجد المخلوقات وأظهر المأمورات وبحكمته أتقن ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركآء في ما رزقناكم فأنتم فيه سوآء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) (بل اتبع الذين ظلموا أهوآءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين)[1] هذا مثل ضربه الله لقبح الشرك وتهجينه مثلا من أنفسكم لا يحتاج إلى حل وترحال وإعمال الجمال (هل لكم مما ملكت أيمانكم من ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم) أي هل أجد من عبيدكم وإبائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم وترون أنكم وهم فيه على حد سواء (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) أي كالأحرار الشركاء في الحقيقة الذي يخاف من قسمه واختصاص كل شيء بماله ليس الأمر كذلك فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكا لكم فيما رزقكم الله تعالى هذا ولستم الذين خلقتموهم ورزقتموهم وهم أيضا مماليك مثلكم فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكا من خلقه وتجعلونه بمنزلته وعديلا له في العبادة وأنتم لا ترضون مساواة مماليككم لكم وهذا من أعجب الأشياء ومن أدل شيء على سفه من اتخذ شريكا مع الله وأن ما اتخذه باطل مضمحل ليس مساويا لله ولا له من العبادة شيء (كذلك نفصل الآيات) بتوضيحها بأمثلتها (لقوم يعقلون) الحقائق ويعرفون وأما من لا يعقل فلو فصلت له الآيات وبينت له البينات لم يكن له عقل يبصر به ما تبين ولا لب يعقل به ما توضح فأهل العقول والألباب هم الذين يساق إليهم الكلام ويوجه الخطاب وإذا علم من هذا المثال أن من اتخذ من دون الله شريكا يعبده ويتوكل عليه في أموره ليس معه من الحق شيء فما الذي أوجب لهم الإقدام على أمر باطل توضح الله بطلانه وظهر برهانه لقد أوجب لهم ذلك اتباع الهوى.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[2]:

(وهو الذي يبدأ الخلق) من النطفة (ثم يعيده) يحييه يوم القيامة (وهو أهون عليه) هين عليه إعادته كإبدائه (وله المثل الأعلى في السماوات والأرض) يقول له الصفة العليا بالقدرة على أهل السموات والأرض (وهو العزيز) فى ملكه وسلطانه (الحكيم) فى أمره

1/ الروم:29.

2/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص340.

وقضائه (ضرب لكم) بين لكم يا معشر الكفار (مثلا) شبها (من أنفسكم) آدميا مثلكم (هل لكم من ما ملكت أيمانكم) من عبيدكم وإمائكم (من شركاء في ما رزقناكم) أعطيناكم من المال والأهل والولد (فأنتم) وعبيدكم وإمائكم (فيه) فيما رزقناكم (سواء) شرك (تخافونهم) تخافون لائمتهم (كخيفتكم أنفسكم) كلائمة آبائكم وأبنائكم وإخوانكم إذا لم تؤدوا حقوقهم فى الميراث، قالوا لا، قال أفترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم تشركون عبيدى فى ملكى ولا تشركون عبيدكم فيما رزقناكم (كذلك) هكذا (نفصل الآيات) نبين علامات وحدانيتى وقدرتى (لقوم يعقلون) يصدقون بأمثال القرآن.

ـ توضيح:

لقد كان المثل المضروب في هذه الأية الكريمة (الروم:28) مطابقًا تمامًا لواقع حال المشركين، الذين ترفعت نفوسهم عن أن يتصل بها ما لا يليق بها من مشاركة الخدم لهم في حياتهم، وقد جاء في الحديث: (قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، يا يزيد بن أسد أتحب الجنة، قلت: نعم، قال: فأحب لأخيك المسلم ما تحب لنفسك)[1]، فإذا كان هذا هو حال المسلمين في ما بينهم، أي أن يحبوا لأخوانهم ما يحبونه لأنفسهم، وكذلك أن يكرهوا لأخوانهم ما يكرهونه لأنفسهم، فمن باب أولى أن تكره النفس الإنسانية للذات الإلهية، العلية، ما تكرهه هي وأكثر، يقول تعالى:

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)[2].

وقد ورد في تفسير ابن كثير، فقال جلت عظمته (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم) أي إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به ويتوارى من القوم من خجله من ذلك يقول تبارك وتعالى فكيف تأنفون أنتم من ذلك وتنسبونه إلى الله عز وجل[3].

1/ المستدرك على الصحيحين ج4/ص186.

2/ الزخرف:17.

3/ تفسير ابن كثير ج4/ص126.

سورة الزمر الأية: 27

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) الزمر:27.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

يقول تعالى (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أي بينا للناس فيه بضرب الأمثال (لعلهم يتذكرون) فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) أي تعلمونه من أنفسكم وقال عز وجل (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وقوله جل وعلا (قرءآنا عربيا غير ذي عوج)[2] أي هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس بل هو بيان ووضوح وبرهان وإنما جعله الله تعالى كذلك وأنزله بذلك (لعلهم يتقون) أي يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد ثم قال (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم (ورجلا سلما) أي سالما (لرجل) أي خالصا لا يملكه أحد غيره (هل يستويان مثلا) أي لا يستوي هذا وهذا كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له فأين هذا من هذا قال بن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد هذه الآية ضربت مثلا للمشرك والمخلص ولما كان هذا المثل ظاهرا بينا جليا قال (الحمد لله) أي على إقامة الحجة عليهم (بل أكثرهم لا يعلمون) أي فلهذا يشركون بالله وقوله تبارك وتعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم حتى تحقق الناس موته مع قوله عز وجل (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين)[3] ومعنى هذه الآية أنكم ستنقلون من هذه الدار لامحالة وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله

1/ تفسير ابن كثير ج4/ص53.

2/ الزمر: 28.

3/ آل عمران: 144.

عز وجل فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة: قال بن أبي حاتم ...، لما نزلت (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون)[1] قال الزبير رضي الله عنه: يا رسول الله أتكرر علينا الخصومة قال صلى، الله عليه وسلم، نعم، قال رضي الله عنه: إن الأمر إذا لشديد ...، عن سفيان وعنده زيادة ولما نزلت (ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم)[2] قال الزبير رضي الله عنه: أي رسول الله، أي نعيم نسئل عنه وإنما نعيمنا الأسودان التمر والماء، قال صلى الله عليه وسلم: {أما إن ذلك سيكون} ...، لما نزلت هذه السورة على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، (إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) قال الزبير رضي الله عنه أي رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب، قال: صلى الله عليه وسلم، {نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه} قال الزبير رضي الله عنه والله إن الأمر لشديد ...، عن أبي سعيد، رضي الله عنه، قال، قال: رسول الله، صلى الله عليه وسلم،: {والذي نفسي بيده إنه ليختصم حتى الشاتان فيما انتطحتا} ...، عن أبي ذر، رضي الله عنه، أنه قال: رأى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، شاتين ينتطحان فقال: {أتدري فيما ينتطحان يا أبا ذرن قلت: لا، قال، صلى الله عليه وسلم، لكن الله يدري وسيحكم بينهما} وقال الحافظ ...، عن أنس، رضي الله، عنه قال، قال: رسول الله، صلى الله عليه وسلم، {يجاء بالإمام الجائر الخائن يوم القيامة فتخاصمه الرعية فيفلحون}

ـ توضيح:

لا شك في أن الذاكرة لدى الإنسان يصيبها الخمول والنسيان، وتحتاج إلى الكثير من التنشيط والتجديد؛ لذلك جاء المثل في الآية (الزمر:27)، لتنبيه العقول لعلها تنتبه من غفلتها وتدرك الغرض من تتابع ذكر الأمثال وكثرة ورودها في القرآن العظيم، قال تعالى:

1/ الزمر:31.
2/ التكاثر: 8.

(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)[1].

1/ الفجر:23.

سورة الحشر الأية: 15 ـ16

(كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) الحشر:15-16.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

قال تعالى: (كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) قال مجاهد والسدي ومقاتل بن حيان يعني كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر، وقال بن عباس كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع، وكذا قال قتادة ومحمد بن إسحاق وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد أجلاهم قبل هذا وقوله تعالى (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك) يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين وقول المنافقين لهم لئن قوتلتم لننصرنكم ثم لما حقت الحقائق وجد بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان والعياذ بالله الكفر فإذا دخل فيما سوله تبرأ منه وتنصل وقال (إني أخاف الله رب العالمين) وقد ذكر بعضهم ها هنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل لا أنها المرادة وحدها بالمثل بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها فقال بن جرير ...، عن أبي إسحاق سمعت عبد الله بن نهيك قال سمعت عليا، رضي الله عنه، يقول إن راهبا تعبد ستين سنة وإن الشيطان أراده فأعياه فعمد إلى امرأة فأجنها ولها إخوة فقال لإخوتها عليكم بهذا القس فيداويها قال فجاؤوا بها إليه فداواها وكانت عنده فبينما هو يوما عندها إذ أعجبته فأتاها فحملت فعمد إليها فقتلها فجاء إخوتها فقال الشيطان للراهب أنا صاحبك إنك أعييتني أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك فاسجد لي سجدة فسجد له فلما سجد له قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين فذلك قوله (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين) وقال بن جرير ...، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله

1/ تفسير ابن كثير ج4/ص341-342.

رب العالمين) قال كانت امرأة ترعى الغنم وكان لها أربعة إخوة وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب قال فنزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل مصدق يسمع قولك فقتلها ثم دفنها قال فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم إن الراهب صاحب الصومعة فجر باختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا فلما أصبحوا قال رجل منهم والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك قالوا لا بل قصها علينا قال فقصها فقال الآخر وأنا والله لقد رأيت ذلك فقال الآخر وأنا والله لقد رأيت ذلك قالوا فوالله ما هذا إلا لشيء قال فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان فقال إني أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه قال فسجد له فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل وكذا روي عن بن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيصا فالله أعلم وهذه القصة مخالفة لقصة جريج العابد فإن جريجا اتهمته امرأة بغي بنفسها وادعت أن حملها منه ورفعت أمرها إلى ولي الأمر فأمر به فأنزل من صومعته وخربت صومعته وهو يقول مالكم مالكم قالوا يا عدو الله فعلت بهذه المرأة كذا وكذا فقال جريج اصبروا ثم أخذ ابنها وهو صغير جدا ثم قال يا غلام من أبوك قال أبي الراعي وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيما بليغا وقالوا نعيد صومعتك من ذهب قال لا بل أعيدوها من طين كما كانت.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[1]:

(كمثل الذين من قبلهم) يقول مثل بنى قريظة فى نقض العهد والعقوبة كمثل الذين من قبلهم من قبل بنى قريظة (قريبا) بسنتين (ذاقوا وبال أمرهم) عقوبة أمرهم بنقض العهد وهم بنو النضير (ولهم عذاب أليم) وجيع فى الآخرة (كمثل الشيطان) يقول مثل المنافقين مع بنى قريظة حيث خذلوهم كمثل الشيطان مع الراهب (إذ قال للإنسان) الراهب برصيصا (أكفر) بالله (فلما كفر) بالله خذله (قال إني بريء منك) ومن دينك (إني أخاف الله رب العالمين).

1/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص465.

ـ توضيح:

تقول الحكمة القديمة: العاقل من اتعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه. ولعل المثل المضروب في هاتين الآيتين الكريمتين (الحشر:15-16)، ينبئ عن ذلك بوضوح، حين يطلب إلى المشركين أن يتعظوا بمن سبقوهم، ولا يقف التوجيه عند هذا الحد، وإنما تقدم الآياتان مثلاً آخر فيه الكثير من الوعظ والارشاد للإنسان؛ وذلك حتى لا يضل ويتبع خطا الشيطان، فيصبح أكثر ضلالاً من الشيطان نفسه.

سورة الحشر الآية: 21

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآَنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) الحشر:21.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

(لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا) إلى آخرها يقول لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع ثم قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وكذا قال قتادة وبن جرير، وقد ثبت في الحديث المتواتر، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لما عمل له المنبر وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبي، صلى الله عليه وسلم، ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر فعند ذلك حن الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكت لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده، ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الجذع وهكذا هذه الآية الكريمة إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم.

ـ تفسير القرطبي[2]:

قوله تعالى: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا) حث على تأمل مواعظ القرآن وبين أنه لا عذر في ترك التدبر فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة أي متشققة من خشية الله والخاشع الذليل والمتصدع المتشقق وقيل خاشعا لله بما كلفه من طاعته (متصدعا من خشية الله) أن يعصيه فيعاقبه وقيل هو على وجه المثل للكفار قوله تعالى (وتلك الأمثال

1/ تفسير ابن كثير ج4/ص344.
2/ تفسير القرطبي ج18/ص44-45.

نضربها للناس) أي إنه لو أنزل هذا القرآن على جبل لخشع لوعده وتصدع لوعيده وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده ولا ترهبون من وعيده وقيل الخطاب للنبي، صلى الله عليه وسلم، أي لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت وتصدع من نزوله عليه وقد أنزلناه عليك وثبتناك له فيكون ذلك امتنانا عليه أن ثبته لما لا تثبت له الجبال وقيل إنه خطاب للأمة وأن الله تعالى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدعت من خشية الله والانسان أقل قوة وأكثر ثباتا فهو يقوم بحقه إن أطاع ويقدر على رده إن عصى لأنه موعود بالثواب ومزجور بالعقاب.

ـ توضيح:

في هذه الآية الكريمة (الحشر:21)، دعوة من لدن عليم خبير، للتفكر والتأمل والتدبر ...، ولا يغيب عن فطنة المستبصر المدرك لمعاني آي القرآن العظيم، الربط المحكم بين انتشار الآيات التي تدعو إلى إعمال العقل وكثرتها، وبين كثرة الأمثال التي ضربها القرآن العظيم للناس حتى يؤمنوا بالحق وبالرسل، وليست هناك من شك في أن الكثرة والتكرار، هنا، لم تأت اعتباطًا وإنما جاءت بغرض تبيين أهمية الشئ المراد توضيحه، ألا وهو صدق ما جاء به المرسلون من دعوة.

سورة محمد الأية: 3

(ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ) محمد:3.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

(ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل) أي انما أبطلنا أعمال الكفار وتجاوزنا عن سيئات الأبرار وأصلحنا شؤونهم لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل أي اختاروا الباطل على الحق (وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) أي يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه في معادهم.

ـ تفسير القرطبي[2]:

قوله تعالى: (وذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) ذلك في موضع رفع أي الأمر ذلك أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببه هذا فالكافر اتبع الباطل والمؤمن اتبع الحق والباطل الشرك والحق التوحيد والإيمان (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) أي كهذا البيان الذي بين يبين الله للناس أمر الحسنات والسيئات والضمير في أمثالهم يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا.

ـ توضيح:

إن المثل المضروب في هذه الآية الكريمة (محمد:3)، هو اسم على مسمى، إذ نلاحظ أن، هناك، سبيلين للسير فيهما، أحدهما ينجي صاحبه والآخر يدفع بصاحبه إلى مهاوي الهلاك، وفي نفس الوقت ندرك أن كل نفس تهفو وتميل إلى ما تحب وتعشق، فنفس المؤمن ارتقت وسمت إلى الحق لأنها استشعرت ما فيه من فلاح ونجاح وفوز يوم البعث والنشور،

1/ تفسير ابن كثير ج4/ص173.
2/ تفسير القرطبي ج16/ص225.

بينما خلدت نفس الكافر إلى الشهوات متبعة سبيل الباطل، دون أن تراعي ما ينتظرها في ذلك السبيل من هلاك ودمار، يقول تعالى:

(وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)[1].

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)[2].

1/ النساء:115.

2/ التوبة: 63.

سورة محمد الأية:10

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) محمد:10.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

(أفلم يسيروا في الأرض) يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أي من الأمم المكذبة للرسل كيف (دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) كقوله (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) الآية، فاذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين وهذه كانت سنته.

ـ تفسير القرطبي[2]:

(أفلم يسيروا في الأرض) بين أحوال المؤمن والكافر تنبيها على وجوب الإيمان ثم وصل هذا بالنظر أي ألم يسر هؤلاء في أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم (فينظروا) بقلوبهم (كيف كان) آخر أمر الكافرين قبلهم (دمر الله عليهم) أي أهلكهم واستأصلهم يقال دمره تدميرا ودمر عليه بمعنى ثم تواعد مشركي مكة فقال (وللكافرين أمثالها) أي أمثال هذه الفعلة يعني التدمير وقال الزجاج والطبري الهاء تعود على العاقبة أي وللكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا.

ـ توضيح:

تهدف هذه الآية الكريمة (محمد:10) إلى تقديم النصح والارشاد لكل ذي بصيرة وعقل، إذ عليه أن ينظر إلى تاريخ الأمم السابقة بعين العقل المستبصر، وأن يستخلص من آثارهم العبرة والعظات، ففي آثارهم أمثولة حية وناطقة لمن جاء من بعدهم من الأمم، فهل استوعبنا الدرس، قال تعالى:

1/ تفسير ابن كثير ج2/ص497.

2/ تفسير القرطبي ج16/ص234

(وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ)[1].

فانظروا واعتبروا يا أولي النهي كيف فعل الله تعالى بهم، قال تعالى:

(وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا)[2].

1/ إبراهيم:45.

2/ الفرقان:39.

سورة محمد الأية:15

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) محمد:15.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

قال عز وجل: (مثل الجنة التي وعد المتقون) قال عكرمة: (مثل الجنة) أي نعتها (فيها أنهار من ماء غير آسن) قال بن عباس: رضي الله عنهما، والحسن وقتادة يعني غير متغير وقال قتادة والضحاك وعطاء الخرساني غير منتن والعرب تقول أسن الماء إذا تغير ريحه وفي حديث مرفوع أورده بن أبي حاتم غير آسن يعني الصافي الذي لا كدر فيه وقال بن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق قال قال عبد الله رضي الله عنه أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) أي بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة وفي حديث مرفوع لم يخرج من ضروع الماشية (وأنهار من خمر لذة للشاربين) أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون)[2] (لا يصدعون عنها ولا ينزفون)[3] (بيضاء لذة للشاربين)[4] وفي حديث مرفوع لم يعصرها الرجال بأقدامهم (وأنهار من عسل مصفى) أي وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح وفي حديث مرفوع لم يخرج من بطون النحل وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون...، قال: سمعت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول {في الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار منها بعد} ...، عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال قال: رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم ، {هذه الأنهار تشخب من جنة عدن في جوبة ثم تصدع بعد أنهارا} وفي الصحيح {إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر

1/ تفسير ابن كثير ج4/ص177.
2/ الصافات: 47.
3/ يس: 19.
4/ الصافات: 46.

أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن} وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيري وعبد الله بن الصفر السكري قالا حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثني عبد الرحمن بن المغيرة حدثني عبد الرحمن بن عياش عن دلهم بن الأسود قال دلهم وحدثنيه أيضا أبي الأسود عن عاصم بن لقيط قال إن لقيط بن عامر خرج وافدا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قلت يا رسول الله فعلى ما تطلع من الجنة قال: صلى الله عليه وسلم، {على أنهار عسل مصفى وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وماء غير آسن وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله وأزواج مطهرة}، قلت: يا رسول الله أو لنا فيها أزواج مصلحات قال: {الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم غير أن لا توالد} ...، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض حافاتها قباب اللؤلؤ وطينها المسك الأذفر وقد رواه أبو بكر بن مردويه من حديث مهدي بن حكيم عن يزيد بن هارون به مرفوعا وقوله تعالى (ولهم فيها من كل الثمرات)[1] كقوله عز وجل (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين)[2] وقوله تبارك وتعالى (فيها من كل فاكهة زوجان) وقوله سبحانه وتعالى (ومغفرة من ربهم) أي مع ذلك كله وقوله سبحانه وتعالى (كمن هو خالد في النار) أي أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار ليس هؤلاء كهؤلاء وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات (وسقوا ماء حميما) أي حارا شديد الحر لا يستطاع (فقطع أمعاءهم) أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء عياذا بالله تعالى من ذلك.

ـ تفسير السعدي[3]:

(مثل الجنة التي وعد المتقون فيهآ أنهار من مآء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا مآء حميما فقطع أمعآءهم) (مثل الجنة التي وعد المتقون) أي التي أعدها الله لعباده الذين اتقوا سخطه واتبعوا رضوانه أنها من نعتها وصفتها الجميلة (فيها أنهار من ماء غير آسن) أي غير متغير لا بوخم ولا بريح منتنة ولا بحرارة ولا

1/ محمد:15.

2/ الدخان:55.

3/ تفسير السعدي ج1/ص786.

بكدورة بل هو أعذب المياه وأصفاها وأطيبها ريحا وألذها شربا (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) بحموضة ولا غيرها (وأنهار من خمر لذة للشاربين) أي يلتذ بها لذة عظيمة لا كخمر الدنيا التي يكره مذاقها وتصدع الرأس وتغول العقل (وأنهار من عسل مصفى) من شمعه وسائر أوساخه (ولهم فيها من كل الثمرات) من نخيل وعنب وتفاح ورمان وأترج وتين وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم ثم قال (ومغفرة من ربهم) يزول بها عنهم المرهوب فهؤلاء خير أم (كمن هو خالد في النار) التي اشتد حرها وتضاعف عذابها (وسقوا) فيها (ماء حميما) أي حارا جدا (فقطع أمعاءهم).

ـ تفسير القرطبي[1]:

قوله تعالى: (مثل الجنة التي وعد المتقون) لما قال عز وجل إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات وصف تلك الجنات أي صفة الجنة المعدة للمتقين وقد مضى الكلام في هذا في الرعد وقرأ علي بن أبي طالب مثال الجنة التي وعد المتقون (فيها أنهار من ماء غير آسن) أي غير متغير الرائحة والآسن من الماء مثل الآجن وقد أسن الماء يأسن ويأسن أسنا وأسونا إذا تغيرت رائحته وكذلك أجن الماء يأجن ويأجن أجنا وأجونا ويقال بالكسر فيهما أجن وأسن يأسن ويأجن أسنا وأجنا قاله اليزيدي وأسن الرجل أيضا يأسن بالكسر لا غير إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغشي عليه أو دار رأسه قال زهير قد أترك القرن مصفرا أنامله يميد في الرمح ميد المائح الأسن ويروى الوسن وتأسن الماء تغير أبو زيد تأسن علي تأسنا اعتل وأبطأ أبو عمرو تأسن الرجل أباه أخذ أخلاقه وقال اللحياني إذا نزع إليه في الشبه وقراءة العامة آسن بالمد وقرأ بن كثير وحميد أسن بالقصر وهما لغتان مثل حاذر وحذر وقال الأخفش أسن للحال وآسن مثل فاعل يراد به الاستقبال (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) أي لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة وأنهار من خمر لذة للشاربين أي لم تدنسها الأرجل ولم ترنقها الأيدي كخمر الدنيا فهي لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون يقال شراب لذ ولذيذ بمعنى واستلذه عده لذيذا (وأنهار من عسل مصفى) العسل ما يسيل من لعاب النحل مصفى أي من الشمع والقذى خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنسه النحل وفي الترمذي عن حكيم بن معاوية عن

1/ تفسير القرطبي ج16/ص236-237.

أبيه عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: {إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد} ...، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال: رسول الله، صلى الله عليه وسلم، {سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة} وقال كعب نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ونهر الفرات نهر لبنهم ونهر مصر نهر خمرهم ونهر سيحان نهر عسلهم وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر والعسل يذكر ويؤنث وقال بن عباس من عسل مصفى أي لم يخرج من بطون النحل ولهم فيها من كل الثمرات) من زائدة للتأكيد (ومغفرة من ربهم) أي لذنوبهم (كمن هو خالد في النار) قال الفراء المعنى أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار وقال الزجاج أي أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار فقوله كمن بدل من قوله أفمن زين له سوء عمله وقال بن كيسان مثل هذه الجنة التي فيها الثمار والأنهار كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم ومثل أهل الجنة في النعيم المقيم كمثل أهل النار في العذاب المقيم (وسقوا ماء حميما) أي حارا شديد الغليان إذا أدنى منهم شوى وجوههم ووقعت فروة رؤوسهم فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم والأمعاء جمع معي والتثنية معيان وهو جميع ما في البطن من الحوايا.

ـ توضيح:

تتضمن هذه الآية الكريمة (محمد:15)، موقفين، الموقف الأول فيه الكثير من عناصر التشويق للنفس المؤمنة، من أجل حثها على العمل في سبيل الله تعالى، والصبر على الدنيا وما فيها من المكاره، أما الموقف الثاني، فقد ضرب للنفس التي لجت في الخصومة وشطت في الكفر، وتريد الآية أن تعقد مقارنة بين شعور وأحاسيس كل من النفس المؤمنة في نعيمها، والنفس الكافرة في جحيمها. وعلى الإنسان أن يحدد موقفه في هذه الدنيا قبل أن يرحل عنها بالموت.

سورة محمد الأية: 29

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) محمد:29.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

يخبر تعالى عن محمد، صلى الله عليه وسلم، أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب فقال: (محمد رسول الله) وهذا مبتدأ وخبر وهو مشتمل على كل وصف جميل ثم ثنى بالثناء على أصحابه، رضي الله عنهم، فقال (والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) كما قال عز وجل (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين)[2] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفا على الكفار رحيما برا بالأخيار غضوبا عبوسا في وجه الكافر ضحوكا بشوشا في وجه أخيه المؤمن كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة وقال النبي، صلى الله عليه وسلم، {مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر}، وقال: صلى الله عليه وسلم، {المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا} وشبك صلى الله عليه وسلم بين أصابعه كلا الحديثين في الصحيح وقوله سبحانه وتعالى (تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول كما قال جل وعلا (ورضوان من الله أكبر)[3] وقوله جل جلاله (سيماهم

1/ تفسير ابن كثير ج4/ص204-206.

2/ المائدة:54

3/ التوبة:72.

في وجوههم من أثر السجود) قال علي بن أبي طلحة عن بن عباس رضي الله عنهما سيماهم في وجوههم يعني السمت الحسن وقال مجاهد وغير واحد يعني الخشوع والتواضع، وقال بن أبي حاتم ....، عن مجاهد (سيماهم في وجوههم من أثر السجود) قال الخشوع قلت ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه فقال ربما كان بين عيني من هو أقسى قلبا من فرعون وقال السدي الصلاة تحسن وجوههم وقال بعض السلف من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ....، عن جابر، رضي الله عنه، قال قال: رسول الله، صلى الله عليه وسلم، {من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار} والصحيح أنه موقوف وقال بعضهم: إن للحسنة نورا في القلب وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته، وقال أبو القاسم الطبراني ....، عن جندب بن سفيان البجلي، رضي الله عنه، قال قال النبي، صلى الله عليه وسلم ، {ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها إن خيرا فخير وإن شرا فشر العرزمي متروك}، وقال الإمام أحمد ....، عن أبي سعيد، رضي الله ، عنه عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: {لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنا ما كان}، وقال الإمام أحمد ....، عن بن عباس، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال {إن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة} ....، وقال مالك رضي الله عنه بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ولهذا قال سبحانه وتعالى ها هنا (ذلك مثلهم في التوراة) ثم قال (ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه) أي فراخه (فآزره) أي شده (فاستغلظ) أي شب وطال (فاستوى على سوقه يعجب الزراع) أي فكذلك أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع (ليغيظ بهم الكفار) ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه في رواية عنه بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم قال لأنهم يغيظونهم

ومن غاظ الصحابة رضي الله عنهم فهو كافر لهذه الآية ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلكوالأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم ثم قال تبارك وتعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم) من هذه لبيان الجنس (مغفرة) أي لذنوبهم (وأجرا عظيما) أي ثوابا جزيلا ورزقا كريما ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم وقد فعل قال مسلم 2540 في صحيحه حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه.

ـ توضيح:

تحدثنا الآية الكريمة (محمد:29) عن سمات وصفات رسولنا الكريم، عليه أفضل صلاة وأتم تسليم، وأيضًا، أصحابه الكرام الميامين، غير أن الآية ترمي إلى توجيه الأنظار إلى عبارة (يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا)، أي إلى الاجتهاد في العبادة والتعبد، من أجل الفوز بالمغفرة والأجر العظيم، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)[1].

1/ الشعراء: 88-89.

سورة الجمعة الأية:5

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) الجمعة:5.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

يقول تعالى، ذاما لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها مثلهم في ذلك (كمثل الحمار يحمل أسفارا) أي كمثل الحمار إذا حمل كتبا لا يدري ما فيها فهو يحملها حملا حسيا ولا يدري ما عليه وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظا ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه بل أولوه وحرفوه وبدلوه فهم أسوأ حالا من الحمير لأن الحمار لا فهم له وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)[2]، وقال تعالى ها هنا (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) وقال الإمام أحمد ...، عن بن عباس قال قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، {من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا والذي يقول له أنصت ليس له جمعة} ثم قال تعالى (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين)[3] أي إن كنتم تزعمون أنكم على هدى وأن محمدا وأصحابه على ضلالة فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين أي فيما تزعمونه قال الله تعالى (ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم)[4] أي بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور (والله عليم بالظالمين) وقد قدمنا الكلام في سورة البقرة على هذة المباهلة لليهود حيث قال تعالى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو

1/ تفسير ابن كثير ج4/ص365.

2/ الأعراف: 179.

3/ الجمعة:6.

4/ الجمعة:7.

يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون)[1] وقد أسلفنا الكلام هناك وبينا أن المراد أن يدعوا على الضلال من أنفسهم أو خصومهم كما تقدمت مباهلة النصارى في آل عمران (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)[2] ومباهلة المشركين في سورة مريم (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا)[3] وقد قال الإمام أحمد ...، عن بن عباس قال، قال: أبو جهل، لعنه الله، إن رأيت محمدا عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال، فقال: رسول الله، صلى الله عليه وسلم، {لو فعل لأخذته الملائكة عيانا ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا}.

ـ تفسير القرطبي[4]:

ضرب مثلا لليهود لما تركوا العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد، صلى الله عليه وسلم، (حملوا التوراة) أي كلفوا العمل بها، عن بن عباس وقال الجرجاني هو من الحمالة بمعنى الكفالة، أي ضمنوا أحكام التوراة (كمثل الحمار يحمل أسفارا) هي جمع سفر وهو الكتاب الكبير لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ قال ميمون بن مهران الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبيل فهكذا اليهود وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء وقال الشاعر:

زوامل للأسفار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه أوراح ما في الغرائر

وقال يحيى بن يمان يكتب أحدهم الحديث ولا يتفهم ولا يتدبر فإذا سئل أحدهم عن مسألة جلس كأنه مكاتب وقال الشاعر إن الرواة على جهل بما حملوا مثل الجمال عليها يحمل الودع لا الودع ينفعه حمل الجمال له ولا الجمال بحمل الودع تنتفع وقال منذر بن

1/ البقرة: 94-96.

2/ آل عمران: 61.

3/ مريم:95.

4/ تفسير القرطبي ج18/ص94-95.

سعيد البلوطي رحمه الله فأحسن انعق بما شئت تجد أنصارا وزم أسفارا تجد حمارا يحمل ما وضعت من أسفار يحمله كمثل الحمار يحمل أسفارا له وما درى إن كان ما فيها صوابا وخطا إن سئلوا قالوا كذا روينا ما إن كذبنا ولا اعتدينا كبيرهم يصغر عند الحفل لأنه قلد أهل الجهل (ثم لم يحملوها) أي لم يعملوا بها شبههم والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بالحمار يحمل كتبا وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة و (يحمل) في موضع نصب على الحال أي حاملا ويجوز أن يكون في موضع جر على الوصف لأن الحمار كاللئيم قال ولقد أمر على اللئيم يسبني (بئس مثل القوم) المثل ألذي ضربناه لهم فحذف المضاف (والله لا يهدي القوم الظالمين) أي من سبق في علمه أنه يكون كافرا.

ـ توضيح:

إن المتأمل لهذه الآية الكريمة (الجمعة:5)، يستطيع أن يستشعر فيها نموذجًا رفيعًا، وشاهدًا حيًا، على تطابق المثل الذي استعرضته الآية مع المشهد المحسوس والماثل أمام الأعين، فهو مشهد يعبر تعبيرًا حقيقيًا عن موقف اليهود من كتاب التوراة التي لم يستوعبوا منها شيئًا، مثلهم في ذلك مثل الحمار الذي لا يفقه حرفًا مما قد يحمله من الكتب، إن هذا المشهد يمثل لوحة تصويرية مرسومة بدقة وعناية بالغة، بحيث لا تخطئ العين ولا الأذن ما يريد المشهد أن يبينه للناس من سخرية واستهذاء بحال اليهود ومن يحزون حزوهم. إنها البلاغة في أسمى وأروع معانيها.

سورة التحريم الأية:10 ـ12

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آَمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) التحريم:10-12.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

قال تعالى: (ضرب الله مثلا للذين كفروا) أي في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئا ولا ينفعهم عند الله إن لم يكن الإيمان حاصلا في قلوبهم ثم ذكر المثل فقال (امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين) أي نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلا ونهارا يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط فخانتاهما أي في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان ولا صدقاهما في الرسالة فلم يجد ذلك كله شيئا ولا دفع عنهما محذورا ولهذا قال تعالى (فلم يغنيا عنهما من الله شيئا) أي لكفرهما (وقيل) أي للمرأتين (ادخلا النار مع الداخلين) وليس المراد بقوله (فخانتاهما) في فاحشة بل في الدين فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء كما قدمنا في سورة النور قال سفيان الثوري عن موسى بن أبي عائشة عن سليمان بن قرم سمعت بن عباس يقول في هذه الآية فخانتاهما قال ما زنتا أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه وقال العوفي عن بن عباس قال كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحدا أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء وقال الضحاك عن بن عباس ما بغت امرأة نبي قط إنما كانت خيانتهما في الدين ...، حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا بن علية عن هشام الدستوائي حدثنا القاسم بن أبي بزة قال كانت امرأة فرعون تسأل من غلب فيقال غلب

1/ تفسير ابن كثير ج4/ص394-395

موسى وهارون فتقول آمنت برب موسى وهارون فأرسل إليها فرعون فقال انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها وإن رجعت عن قولها فإنها امرأتي فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة فمضت على قولها وانتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح فقولها (رب بن لي عندك بيتا في الجنة) قالت العلماء اختارت الجار قبل الدار وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع (ونجني من فرعون وعمله) أي خلصني منه فإني أبرأ إليك من عمله (ونجني من القوم الظالمين) وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون فوقع المشط من يدها فقالت تعس من كفر بالله فقالت لها بنت فرعون ولك رب غير أبي قالت ربي وربي أبيك ورب كل شيء الله فلطمتها بنت فرعون وضربتها وأخبرت أباها فأرسل إليها فرعون فقال تعبدين ربا غيري قالت نعم ربي وربك ورب كل شيء الله وإياه أعبد فعذبها فرعون وأوتد لها أوتادا فشد يديها ورجليها وأرسل عليها الحيات فكانت كذلك فأتى عليها يوما فقال لها ما أنت منتهية فقالت له ربي وربك ورب كل شيء الله فقال لها إني ذابح ابنك في فيك إن لم تفعلي فقالت له اقض ما أنت قاض فذبح ابنها في فيها وإن روح ابنها بشرها فقال لها أبشري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا فصبرت ثم أتى عليها فرعون يوما آخر فقال لها مثل ذلك فقالت له مثل ذلك فذبح ابنها الآخر في فيها فبشرها روحه أيضا وقال لها اصبري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا قال وسمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فآمنت امرأة فرعون وقبض الله روح امرأة خازن فرعون وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها في الجنة لامرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيمانا ويقينا وتصديقا فأطلع الله فرعون على إيمانها فقال للملأ ما تعلمون من آسية بنت مزاحم فأثنوا عليها فقال لهم إنها تعبد غيري فقالوا له اقتلها فأوتد لها أوتادا فشد يديها ورجليها فدعت آسية ربها فقالت (رب بن لي عندك بيتا في الجنة) فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنة فقال فرعون ألا تعجبون من جنونها إنا نعذبها وهي تضحك فقبض الله روحها في الجنة رضي الله عنها وقوله تعالى (ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها) أي حفظته وصانته والإحصان هو العفاف والحرية (فنفخنا فيه من روحنا) أي بواسطة الملك وهو جبريل فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام ولهذا

قال تعالى (فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه) أي بقدره وشرعه (وكانت من القانتين) قال الإمام أحمد ....، عن بن عباس قال خط رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في الأرض أربعة خطوط وقال: {أتدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون}، وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمداني عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم، {قال: كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام} وقد ذكرنا طرق هذه الأحاديث وألفاظها والكلام عليها في قصة عيسى بن مريم عليهما السلام في كتابنا البداية والنهاية ولله الحمد والمنة وذكرنا ما ورد من الحديث من أنها تكون هي وآسية بنت مزاحم من أزواجه عليه السلام في الجنة عند قوله تعالى ثيبات وأبكارا.

ـ تفسير السعدي[1]:

(ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنينا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) هذان المثلان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيده شيئا وأن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئا مع قيامه بالواجب عليه فكأن في ذلك إشارة وتحذيرا لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم عن المعصية وأن اتصالهن به صلى الله عليه وسلم لا ينفعهن شيئا مع الإساءة فقال (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا) أي المرأتان تحت عبدين من عبادنا صالحين) وهما نوح ولوط عليهما السلام (فخانتاهما) في الدين بأن كانتا على غير دين زوجيهما وهذا هو المراد بالخيانة لا خيانة النسب والفراش فإنه ما بغت امرأة نبي قط وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغيا (فلم يغنيا) أي نوح ولوط (عنهما)

1/ تفسير السعدي ج1/ص874-875.

أي عن امرأتيهما (من الله شيئا وقيل لهما ادخلا النار مع الداخلين) (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها (إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين) فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها وسؤالها أجل المطالب وهو دخول الجنة ومجاورة الرب الكريم وسؤالها أن ينجيها من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة ومن فتنه كل ظالم فاستجاب الله لها فعاشت في إيمان كامل وثبات تام ونجاة من الفتن ولهذا قال النبي، صلى الله عليه وسلم، {كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام} وقوله (ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها) أي حفظته وصانته عن الفاحشة لكمال ديانتها وعفتها ونزاهتها فنفخنا فيه من روحنا بأن نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها فوصلت نفخته إلى مريم فجاء منها عيسى عليه السلام الرسول الكريم والسيد العظيم (وصدقت بكلمات ربها وكتبه) وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة فإن التصديق بكلمات الله يشمل كلماته الدينية والقدرية والتصديق بكتبه يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل ولهذا قال (وكانت من القانتين) أي المداومين على طاعة الله بخشية وخشوع وهذا وصف لها بكمال العمل فإنها رضي الله عنها صديقة والصديقية هي كمال العلم والعمل.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[1]:

(ضرب الله) بين الله (مثلا) صفة (للذين كفروا) بالمرأتين الكافرتين (امرأة نوح) واهلة (وامرأة لوط) واعلة (كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين) مرسلين (فخانتاهما) فخالفتاهما فى الدين وأظهرتا الإيمان باللسان وأسرتا النفاق بالقلب ولم تخونا بالفجور لأنه لم تفجر امرأة نبى قط (فلم يغنيا عنهما) لم ينفعهما (من الله) من عذاب الله شيئا صلاح زوجيهما مع كفرهما وقيل ادخلا النار) فى الآخرة (مع الداخلين) فى النار ثم حثهما على التوبة والإحسان بامرأة فرعون آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران فقال (وضرب الله مثلا) بين الله صفة (للذين آمنوا) بامرأتين مسلمتين (امرأة فرعون) آسية بنت مزاحم (إذ قالت) فى عذاب فرعون لها (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة) لكى يهون على عذاب فرعون (ونجني من فرعون)

1/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص478.

من دين فرعون (وعمله) عذابه (ونجني من القوم الظالمين) الكافرين فلم يضرها كفر زوجها مع إيمانها وإخلاصها (ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها) حفظت فرجها يعنى جيب درعها من الفواحش (فنفخنا فيه من روحنا) فنفخ جبريل فى جيب قميصها بأمرنا فحملت بعيسى (وصدقت بكلمات ربها) بما قال لها جبريل (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا)[1] (وكتبه) وبكتبه التوراة والإنجيل وسائر الكتب ويقال بكلمات ربها بعيسى بن مريم أن يكون بكلمة من الله كن فصار مخلوقا وبكتابه الإنجيل وكانت من القانتين) من المطيعين لله فى الشدة والرخاء ويقال وكانت من القانتين الذى تعالى وتعاظم.

- توضيح:

تعطي هذه الآيات الكريمة (التحريم:10-12) مثالاً ناطقًا ومعبرًا، يرشد الناس إلى عدم الاستجابة لتأثير البيئة الاجتماعية التي قد ينشأ فيها الفرد، إلا أن الشئ اللافت، هنا، أن النموذج المطروح والمثل المضروب، ليكون بمثابة قدوة للناس، في هذه الآيات، نموذج نسوي وليست بذكوري، مع أن النموذج الذكوري كان حاضرًا، بجلاء، في قصة نوح، عليه السلام، وولده، وقصة إبراهيم، عليه السلام، وأبيه، ومع هذا اختار القرآن العظيم أن يضرب المثل بالنساء بدلاً من الرجال، وفي هذا دلالة على أن المرأة وهي العنصر الأضعف والمضهد، بحكم التربية والتنشئة الاجتماعية، استطاعت أن تتبنى موقفًا مخالفًا للمجتمع الذي نشأت وترعرعت فيه، أي أنها تمكنت من الإفلات من سيطرة وتحكم البيئة الاجتماعية وتأثيراتها، مع ما تملكه من قوة وجبروت قاهر. وبهذا فلا عذر لأحد من الناس الذين يخوضون مع الخائضين دون تفكر أو تدبر، يقول تعالى:

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)[2].

وهناك من لا يريد أن يجهد ذهنه بالتفكير فيتبع ما وجد عليه آباءه، وإن كانوا على ضلال، يقول تعالى:

1/ مريم:21.
2/ المدثر:45.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)[1].

كذلك، هناك من الناس من يتنكب خطا غيره ويعتقد أنه على صواب، يقول تعالى:

(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)[2].

1/ البقرة:170.
2/ الزخرف:22-23.

سورة المدثر الآية: 31

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِإِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَوَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) المدثر:31.

ـ تفسير ابن كثير[1]:

يقول تعالى (وما جعلنا أصحاب النار) أي خزانها (إلا ملائكة) أي زبانية غلاظا شدادا وذلك رد على مشركي قريش حين ذكروا عدد الخزنة فقال أبو جهل يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم فقال الله تعالى (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) أي شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون وقد قيل إن أبا الأشدين واسمه كلدة بن أسيد بن خلف قال يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجابا منه بنفسه وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه قال السهيلي وهو الذي دعا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى مصارعته وقال إن صرعتني آمنت بك فصرعه النبي، صلى الله عليه وسلم، مرارا فلم يؤمن قال وقد نسب بن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب قلت ولا منافاة بين ما ذكراه والله أعلم وقوله تعالى (وما جعلناعدتهم إلا فتنة للذين كفروا) أي إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختبارا منا للناس (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) أي يعلمون أن هذا الرسول حق فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله وقوله تعالى (ويزداد الذين آمنوا إيمانا) أي إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد، صلى الله عليه وسلم، (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض) أي من المنافقين (والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ها هنا قال الله تعالى (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) أي من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ويتزلزل عند آخرين

1/ تفسير ابن كثير ج4/ص445.

وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة وقوله تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين ومن شايعهم من الملتين الذين سمعوا هذه الآية فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة التي اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها وهو قوله (وما يعلم جنود ربك إلا هو).

ـ تفسير السعدي[1]:

(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) وذلك لشدتهم وقوتهم (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) يحتمل أن المراد إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة ولزيادة نكالهم فيها والعذاب يسمى فتنة كما قال تعالى (يوم هم على النار يفتنون)[2] ويحتمل أن المراد أنا ما أخبرناكم بعدتهم إلا لنعلم من يصدق ممن يكذب ويدل على هذا ما ذكره بعده في قوله (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا) فإن أهل الكتاب إذا وافق ما عندهم وطابقه ازداد يقينهم بالحق والمؤمنون كلما أنزل الله آية فآمنوا بها وصدقوا ازداد إيمانهم (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) أي ليزول عنهم الريب والشك وهذه مقاصد جليلة يعتني بها أولو الألباب وهي السعي في اليقين وزيادة الإيمان في كل وقت وكل مسألة من مسائل الدين ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق فجعل ما أنزله على رسوله محصلا لهذه المقاصد الجليلة ومميزا للصادقين من الكاذبين ولهذا قال (وليقول الذين في قلوبهم مرض) أي شك وشبهة ونفاق (والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) وهذا على وجه الحيرة والشك منهم والكفر بآيات الله وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه وإضلاله لمن يضله ولهذا قال (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) فمن هداه الله جعل ما أنزل على رسوله رحمة في حقه وزيادة في إيمانه ودينه ومن أضله جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة وظلمه في حقه والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم (وما يعلم جنود ربك) من الملائكة وغيرهم (إلا هو) فإذا كنتم جاهلين بجنوده وأخبركم بها العليم الخبير فعليكم أن تصدقوا

1/ تفسير السعدي ج1/ص897

2/ العنكبوت:2

خبره من غير شك ولا ارتياب (وما هي إلا ذكرى للبشر)[1] أي وما هذه الموعظة والتذكار مقصودا به العبث واللعب وإنما المقصود به أن يتذكر به البشر ما ينفعهم فيفعلونه وما يضرهم فيتركونه.

ـ تفسير القرطبي[2]:

(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) أي لم نجعلهم رجالا فتتعاطون مغالبتهم وقيل جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذبين من الجن والإنس فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقة ولا يستروحون إليهم ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له فتؤمن هوادتهم ولأنهم أشد خلق الله بأسا وأقواهم بطشا (وماجعلنا عدتهم إلا فتنة) أي بلية، وروي عن بن عباس من غير وجه قال ضلالة للذين كفروا يريد أبا جهل وذويه وقيل إلا عذابا كما قال تعالى (يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم)[3] الذاريات أي جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب وفي تسعة عشر سبع قراءات قراءة العامة تسعة عشر وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وطلحة بن سليمان تسعة عشر بإسكان العين وعن بن عباس تسعة عشر بضم الهاء وعن أنس بن مالك تسعة وعشر وعنه أيضا تسعة وعشر وعنه أيضا تسعة أعشر ذكرها المهدوي وقال من قرأ تسعة عشر أسكن العين لتوالي الحركات ومن قرأ تسعة وعشر جاء به على الأصل قبل التركيب وعطف عشرا على تسعة وحذف التنوين لكثرة الاستعمال وأسكن الراء من عشر على نية السكوت عليها ومن قرأ تسعة عشر فكأنه من التداخل كأنه أراد العطف وترك التركيب فرفع هاء التأنيث ثم راجع البناء وأسكن وأما تسعة أعشر فغير معروف وقد أنكرها أبو حاتم وكذلك تسعة وعشر لأنها محمولة على تسعة أعشر والواو بدل من الهمزة وليس لذلك وجه عند النحو بينالزمخشري وقرى ء تسعة أعشر جمع عشير مثل يمين وأيمن قوله تعالى (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) أي ليوقن الذين أعطوا التوراة والإنجيل أن عدة خزنة جهنم موافقة لما عندهم قاله بن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم ثم يحتمل أنه يريد الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام ويحتمل أنه يريد الكل (ويزداد الذين آمنوا إيمانا) بذلك لأنهم كلما صدقوا بما في كتاب الله آمنوا ثم ازدادوا إيمانا

1/ المدثر:31.
2/ تفسير القرطبي ج19/ص81-82.
3/ الزاريات:13-14.

لتصديقهم بعدد خزنة جهنم ولا يرتاب أي ولا يشك الذين أوتوا الكتاب أي أعطوا الكتاب والمؤمنون (أي المصدقون من أصحاب محمد، صلى الله عليه وسلم، في أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر (وليقول الذين في قلوبهم مرض) أي في صدورهم شك ونفاق من منافقي أهل المدينة الذين ينجمون في مستقبل الزمان بعد الهجرة ولم يكن بمكة نفاق وإنما نجم بالمدينة وقيل المعنى أي وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بعد الهجرة (والكافرون) أي اليهود والنصارى (ماذا أراد الله أي ما أراد بهذا مثلا9 يعني بعدد خزنة جهنم وقال الحسين بن الفضل السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق فالمرض في هذه الآية الخلاف والكافرون أي مشركو العرب وعلى القول الأول أكثر المفسرين ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتياب لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم قاطعين بالكذب وقوله تعالى إخبارا عنهم ماذا أراد الله أي ما أراد بهذا العدد الذي ذكره حديثا أي ماهذا من الحديث قال الليث المثل الحديث ومنه مثل الجنة التي وعد المتقون أي حديثها والخبر عنها (كذلك) أي كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم يضل الله أي يخزي ويعمي (من يشاء ويهدي) أي ويرشد من يشاء كإرشاد أصحاب محمد، صلى الله عليه وسلم، وقيل كذلك يضل الله عن الجنة من يشاء ويهدي إليها من يشاء (وما يعلم جنود ربك إلا هو) أي وما يدري عدد ملائكة ربك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار إلا هو أي إلا الله جل ثناؤه وهذا جواب لأبي جهل حين قال أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر وعن بن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقسم غنائم حنين فأتاه جبريل فجلس عنده فأتى ملك فقال إن ربك يأمرك.

ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس[1]:

(وما جعلنا أصحاب النار) ما سلطنا على أهل النار (إلا ملائكة) يعنى الزبانية (وما جعلنا عدتهم ما ذكرنا قلتهم قلة خزان (إلا فتنة) بلية (للذين كفروا) كفار مكة يعنى أبا الأشد بن أسيد بن كلدة حيث قال أنا أكفيكم سبعة عشر تسعة على ظهرى وثمانية على صدرى فاكفوا أنتم على اثنين (ليستيقن) لكي يستيقن (الذين أوتوا الكتاب) أعطوا الكتاب التوراة يعنى أبا عبد الله بن سلام وأصحابه لأن فى كتابهم كذلك عدة خزان النار (ويزداد الذين آمنوا إيمانا) يقينا إذا علموا أن ما فى كتابنا مثل ما فى التوراة (ولا يرتاب الذين) لا يشك

1/ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ج1/ص492.

الذين (أوتوا الكتاب) عبد الله ابن سلام وأصحابه إذا لم يكن خلاف ما فى كتابهم التوراة (والمؤمنون) أيضا إذ لم يكن خلاف ما فى التوراة (وليقول) لكى يقول (الذين في قلوبهم مرض) شك ونفاق (والكافرون) يعنى اليهود والنصارى ويقال كفار مكة (ماذا أراد الله بهذا مثلا) بهذا المثل إذ ذكر قلة الملائكة (كذلك) هكذا (يضل الله من يشاء) بهذ المثل من كان أهلا لذلك (ويهدي من يشاء) بهذا المثل من كان أهلا لذلك (وما يعلم جنود ربك) من الملائكة (إلا هو وما هي) يعنى سقر (إلا ذكرى للبشر) عظة للخلق أنذرتهم.

ـ توضيح:

تقدم هذه الآية الكريمة (المدثر:31)، المثل الحي لفئتين، فئة مصدقة وموقنة كل اليقين ولا تتنازع نفوسهم بين الشك واليقين، بل تزداد إيمانًا وتمسكًا بما في قلوبهم من عقيدة واضحة وجلية، أما الفئة الثانية فهم نهبًا للهواجس والحيرة وعدم اليقين والشك الذي يملأ نفوسهم ويأكل قلوبهم، لأنهم كذبوا الرسل ولم يصدقوا ما جاءوهم به من توجيه وإرشاد رباني، فهم في حيرة من أمرهم لا يدرون أين هي الحقيقة التي عليهم اتباعها.

الخاتمة

تمثل الأمثال، على قلة كلماتها وقصر عباراتها الموجزة، قمة الحكمة التي يمكن أن يتم استخلاصها من بين الكثير من التجارب العملية والخبرات العقلية التي مرت بها الإنسانية واختزنتها الأمم والشعوب، منذ أقدم الأزمنة، في ذاكرتها؛ مما جعل منها مرتعًا خصبًا لدراسة حضارات الأمم، ومرجعًا أساسيًا للبحث في مجال ثقافات الشعوب؛ لذلك كان القيام بدراسة الأمثال من خلال آي القرآن العظيم من أعظم وأمتع ما يمكن للمرء أن يقوم به في مضمار البحوث والدراسات المتعلقة بكتاب الله تعالى؛ كذلك تعد الأمثال بمثابة النموذج الأسما؛ بما تحمله من معان ودلالات نفسية واجتماعية، وبما تتضمنه وما تشتمل عليه من تأثيرات عميقة الأثر في النفس الإنسانية، إذ إن المثل المحكم العبارة يمكنه أن يحدث في النفس، من الإنفعالات النفسية، ما لا تحدثه الكثير من الصفحات السردية، ويعود ذلك لاستخدامه الأساليب التعبيرية ذات الدلالة البلاغية والموجزة في ذات الآن، الأمر الذي يكسب المثل الكثير من القوة والحجة التي لا يجد السامع، حيالها، بدًا من الخضوع لسطوتها والتسليم لها؛ وبهذا يمكن أن تكون الأمثال وسيلة فعالة في تغيير السلوك، سواء أكان ذلك على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعات البشرية جمعاء، وليست من شك في أن الإسلام، ولاسيما الآيات القرآنية، قد استهدف السلوك البشري بكافة أنماطه ومكوناته الفكرية الفلسفية والانفعالية، سواء أكانت حسية شعورية أو غير مدركة ولا شعورية، فالغرض من التمثل أو ضرب المثل هو لفت النظر وشد الإنتباه إلى الحقيقة الملتبسة على الأذهان والعقول من أجل التدبر والتأمل والتفكر فيها وتحليل معانيها المتعددة وسبر أغوار مضامينها.

نخلص من كل ذلك إلى أن الأمثال تمتاز بالكثير من الخصائص والسمات المميزة لها عن سواها من الحكم والأشعار والقصص ..، وغيرها من أجناس الإبداع الفكري والأدبي:

❖ تمتاز الأمثال، بشكل عام، بأنها جيدة السبك محكمة العبارة، وسهلة الفهم؛ الأمر الذي يمكنها من أن تؤدي أكثر من غرض في آن واحد، فهي تحفذ الذهن على التفكر والتأمل وتعين النفس وتهيئها للفهم المتعمق؛ لذلك استخدمها القرآن العظيم وتمثلها في العديد من

المواضع الحديث، سواء أكان الحديث عن الأمور الدنيوية أو عن الآخرة وما فيها من أشياء لم ترها الأعين ولم تدركها الحواس الظاهرة في الإنسان أو المخفية والمستبطنة في نفسه وعقله.

❖ إن استخدام الأمثال في الموضع المحدد والتوقيت الأنسب يعمل على تفتيح مدارك العقل ويسعف الإنسان في المواقف التي يكون فيها في أمس الحوجة إلى تقديم الدليل والبرهان المؤيد لكلامه وأفكاره.

❖ لا تأتي الأمثال من فراغ وإنما تتكون من خلال التجارب الحية والخبرات العملية؛ لذلك تأتي، في معظمها، مطابقة لواقع الحال ومنسجمة معه.

❖ الحكماء وأهل العقل هم من يدرك سر فلسفة الأمثال وبلاغة أسلوبها، وهم من يحسن استخدامها والاستفادة من قوة حجيتها وقدرتها على التعبير البلاغي، ومدى تمكنها من التغلغل في أعماق النفس البشرية؛ ولعل ذلك هو ما حدا بالقرآن إلى الإكثار منها في العديد من المواضع في القرآن العظيم.

الملاحق

* جدول يوضح عدد مرات تكارا لفظ (جزر مثل) في آيات القرآن العظيم.

اللفظ	التكرار
مثل	46
مثلاً	18
كمثل	13
الأمثال	10
مثله	11
مثلهم	5
أمثالكم	4
ومثلهم	3
مثله	3
مثل	3
أمثالهم	2
كمثله	1
كأمثال	1
المجموع	**122**

المحتويات

هذا الكتاب

من مزايا القرآن الكثيرة، مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين المسلمين، وغير المسلمين، لأنها ثبتت من تلاوة الآيات ثبوت أرقام الحساب، ودلالات اللفظ اليسير، قبل الرجوع إلى تأييدها بالمناقشات والمذاهب التي قد تختلف فيها كثيرًا ..، وتلك المزية هي التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكاليف[1]؛ ولذلك نجد أن القرآن العظيم يدعونا، في الكثير من آياته، دعوة صريحة ومباشرة إلى إعمال العقل والتفكير والتدبر والتأمل والتذكر ...، يقول تعالى:

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) الزمر: 27.

والغرض من إعمال الفكر هو أن يستشعر المؤمن عظمة تلك والآيات القرآنية، ويستخلص من بين ثناياها العظة والعبر؛ وذلك حتى تضمئن النفوس وتتيقن، تمام اليقين، إلى أن القرآن العظيم هو كلام الله الذي تزين بحلل الجمال وبلغ أسما آيات الكمال، يقول تعالى:

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس: 37.

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) الإسراء: 88.